

و.د. محمد خنيزة

روايات مصرية الحبيب

41

Looloo

سافاري

www.dvd4arab.com

سيد الحينيات

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصري شاب مجاهد - كما يقول الخلف - كى يبقى حياً ويبقى طبيياً ..

وحدة (سفارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصة ، و (سفارى) مصطلح غريب معناه (سيد الوحوش فى افعال أفريقيا) ، وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت ان اكثر الاسماء يضيفون حرف لك بين قراء وقراء لتتصل الكلمة الى (سفاراي) .. لا اعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبهه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (ولو) ليست (ولو جماعة) ، على غرار (أرجوا الهدوء) ، ولو كنت ترغب فى معرفة التطق الغربى لللفظة (سفارى) فتتخيل لها (سفارى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سفارى) التى نتكلم عنها لا تصطك الوحوش ، ولكنها تصطك المرضى فى القرية السوداء ، وسط انطرافات سياسية لا تنتهى ، وأهل متشاكين ، وبيئة لا ترحم ..

الوحدة نولية .. لكن بظلم الفقير المعترف بالعجز والتقصير
 شباب مصري عادي جداً .. فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد في
 وطنه ، فأتطلى يبحث عن فرصة في القارة السوداء .. تطلق
 يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التكدير .. وجد المفامرة .. وجد الحب .. للطبيبة
 الكنسية الرقيقة (برنغت جونز) التي صارت زوجته .. ثم
 هناك الفيروست القاتلة ، والقبائل المعادية ، والمرترقة الذين
 لا يمزحون ، والعلماء المخابيل ، وسارقو الأعضاء ..

هناك - كما قلنا - من العصور أن تجمع بين شيئين : أن تظل
 حياً وتظل طبيياً .. لكنك تحاول .. في كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هي ما أجمعه لكم وأقصه لكم في شكل قصص ..
 القصص هي خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والقرع والعرافات
 والمسياسة .. لا أعرف ما إن كان هناك مجنون آخر قد جرب
 أن يصب هذا الخليط في كلوس ويقيمها لكم ، لكني لم ألق هذا
 المجنون بعد إلا في مرآتي ..

تعالوا نبدأ .. وسنقدم كل شيء ..

1- أسبوع واحد ..

سيكون على أن أفسر كل شيء ..

في الواقع لا أجد موقف (كاريرا) مبرراً بما يكفي ، وبالتأكيد كما لا أتمسك له الأعذار .. لكن الحياة ليست بهذا قوضوح ، دعك من أن ظروف البلد ذاته واستعداده الكامل للفساد كلها من العوامل التي جعلت مغامرته ممكنة . كذلك لا أزعج أنني أفهم (لوتشيا) تمامًا .. لكي أستطيع شرح هذا كله فلا بد أن أكون شاكسبير ..

هناك (ملوتزكي) .. مثلاً يصعب على أن أفهم دوافعه كذلك .. لو كان شخصية في قصة لاتهمنا المؤلف بالفشل ، لكن الواقع لا يتصرف بطريقة القصص ، وهناك ألفاظ كثيرة بحق .. هناك شاعر شهير هام حياً بطريقة رقيقة ، ثم كرهها كالجحيم عندما رآها في شم للنسيم تأكل الفسيفساء هل هذا دافع كاف مبرر ؟ .. في عالم الألب : لا .. لكن في الواقع نقبل كل شيء لأنه واقع ..

لي صديق رسام يهودي أن يلتقط صوراً راقية للناس ويخلصها بعناية .. كان يروني وضفاً غريباً الفتاة جالسة ، لو رجل وقف وقد نثى ركبته ، فيقول لي : « فقط الحياة تجرؤ على أن تضع

الأجسام فى أوضاع غريبة كهذه ، بينما لو رسمها رسام لاتهموه
بقلة الموهبة وعدم فهم التشريح .. »

ما أريت قوله هو أن هناك الكثير من الثغرات فى فهمى
لـ (كاربيرا) ؛ لهذا سأحكى لك القصة من البداية وأطلب رأيك
باعتبارك عبقرياً .. لماذا أعتبرك عبقرياً ؟ .. لأنك تجلس هنا
تسمع ما أقول !

سيكون على أن أبدأ من البداية وأترك الحكم لك ..

لقد انتهت مغامرتى مع إنفلونزا الطيور التى قررت أن تعود
من مزرعة نجاح فى أنجواتندورى . أنا (علاء) المشاغب الذى
تحيط به المشاكل أينما ذهب ، وإن كنت لم أكف عن اعتبار
نفسى شاباً رقيقاً مسالماً بىغى أن يترك فى سلام ..

أنا (علاء) الرومانسى الذى تعاوده عند النوم أحلام لها مذاق
الحنين ، عن فتاة أفريقية من الزولو ، ترفع يدها وهى تقبلى
بصوت رخيم ، بينما يضرب عشرات الزولو رمالهم بدروعهم ،
ويصرخون مرة واحدة :

.. شاكارولوا ،

تقول لى (أونوبا) وهى تتلوى مع الإيقاع :

- « كل هذا من أجلك وحبك يا (علاء) .. من أجلك .. صالاداشى

ليكتور .. صالاداشى ! »

وأنهض من النوم غارقاً فى العرق وقلبي يتواشب ، لكنى أجد

(برنات) راقدة بجوارى وقد قنثر شعرها الأشقر على الوسادة ..

عينها مفتوحتان ..

لنا (علاء) الجبن الذى يخشى أن يكون قد تكلم أكثر من اللازم

وهو نائم .. لو لم أكن تكلمت فلماذا تنظر إلى فى ثبات فى الظلام

ورأسها على الوسادة ؟ .. لماذا أسكنها عن سبب استيقاظها فلا تقول

شيئاً ؟ .. لو تكلمت فلابد أن هذا كان بالعربية والفرنسية ،

وهى لا تجيدهما .. احتمال نجلى قوى جداً ..

لنا (علاء) الحويط الذى لم يتخدع بتجربة الاقتراب من الموت

تلك .. مر بها لكنها لم تترك برائتها فى شخصيته ولا قناعاته ،

وافضحت ذلك الذى حاول أن يقطع للناس بها ..

أنا (علاء) المحفوظ الذى استرد صحته بعد ما كانت الملايا تلتك به .. أصيب بها برغم أنه بقى نفسه منها .. هذا سوء حظ .. لكن نجاته حسن حظ لا شك فيه ..

أنا (علاء) المفضل الذى لم يعلن إلى أن (مادلين كوفيه) - حفيذة العالم الفرنسى (كوفيه) - فى خطر حقيقى على حياتها لو أنها ظهرت فى جنوب أفريقيا أو تعاملت مع طبيب من (الخوى خوى) ..

أنا (علاء) الذى يخنقه الحنون إلى الوطن .. كيف يكون حلى لو كنت فى قارة أخرى ؟! .. على الأقل تراب أفريقيا هو ذات تراب مصر ..

أنا (علاء) القلق الذى يقرأ عن مصر فى صحف متنترة فيزداد قلقاً وتلتهم القنون قلبه .. لا شىء يضخم الهواجس مثل أن تكون بعيداً .. عندها تتحول الهزة الأرضية إلى زلزال ، والمشجرة إلى مظاهرة ، واختفاء سلعة إلى مجاعة ، والوعكة إلى وباء ..

فى كل مرة أحسب أنني لن أجد مصر كما هى على الإطلاق عندما تركتها .. يالك من بلد عجوز عزيز هش مرهق .. مصر

هي أمي بالمعنى الحرفي للكلمة .. كلاهما عزيز عجز هش
مرهق ، وكلاهما في خطر دائم ، وكلاهما تركته وقلبي يتمزق
عنه .. ليس هذا أفضل وقت لترك أمك للصغرى ولا الكبرى ..

لنا (علاء) الخبر .. لقد سقطت بي الطائرة في صحراء
(كالاهازي) وقللت حيا ، وتعاملت مع البوشمن وقلعت
بناتهم ..

لنا (علاء) الأبله ..

هل لديك تفسير آخر لكونهم لا يجدون سواي كي يرسلوه لأي
مكان ؟ ..

هناك كثيرون غربي ، لكنهم وجدوا أنني سهل وفي متناول اليد ..

هكذا لم تمر على سوى بضعة أيام بعد انتهاء قصتي مع
الطيور ، وكنت في تلك الوقت قد بدأت أرتب كل شيء للعودة
إلى مصر ، حتى استدعيت المدير ..

كنت أتأهب للعودة إلى مصر وقضاء إجازة قصيرة ، بعدها
أتحرك إلى كندا مع برنات حيث تعيش إجازتها بدورها ..
ومعنى هذا أنه سيكون علي أن أقابل أهلها للمرة الأولى .. هذا
بمعنى قلنا ..

لا أعنى أن رأيهم بهمنى كثيراً .. لقد ظفرت بائنتهم وقتتهى
الأمر .. هى بالغة ناضجة وقد اختارت ، ولن يغير أحد وجهة
نظرها .. لكنى برغم هذا أمل أن تكون الأمور سهلة بسيطة ،
والأ سبب لها أى نوع من الصراع ..

أبوها الثرى المغرور الصلى جداً لن ينسجم معى .. أعرف
هذا يقيناً .. واسوف نشترك معاً .. طبيعتى المشتعلة تشبه
الصوديوم لو لامس الهواء .. لا تضعوا الصوديوم فى الهواء
يا سادة ، ولا تتركونى كثيراً مع أبى برنكت ..

سوف تتم الأمور - كما أتخيلها - هكذا : سوف يقول تعبيراً
سخيفاً عن العرب أو المسلمين ، واسوف أبتلعه أول مرة وثلقى
مرة من أجلها ، ثم أظجر .. واسوف تلومنى هى فيما بعد فى
غرفتنا ، وتقول لى :

- « كان يوسعك أن تمسك لسلك .. الكلمات لا تتكصق ا »

فلرد أنا فى حدة :

- « هل سمعت ما قال ١٢ ؟ »

وهكذا .. ارى هذا وأسمعه جيداً .. إن مستقبلاً رائع للجمال
ينتظرنى كما ترى ، لكنى أمل أن تمنحنى زيارة مصر السعة
النفسية اللازمة لتحمل تلك الخنزير .. لماذا هو خنزير ؟! .. لأنه
سيكون كذلك ! .. كل توقعاتى تصدق فى النهاية ..

كنت غارقاً فى هذه الاستعدادات عندما استدعنى (بارتلييه) ..
نظرت إلى ساعتى فوجدتها الساعة مساء .. جميل .. لقد علقت
الحياة لطبيعتها إذن .. على الأقل لن أقبل (بلينجا بايلا)
المدير الأسود ، ولا نقيبته الهولندية الشمطاء (هتا فان بيردن) ..
هنا رجل طريف حنون (مظلوظ) يتظاهر بالحزم ، اسمه
(بارتلييه) ..

حيث السكرتيرة ، وبخات المكتب البسيط ، حيث كان (بارتلييه)
جالساً على مكتبه المتواضع يراجع بعض الأوراق ، وجواره
نحاس العبد الكريه (باركر) .. هذه مهمة مناسبة لى جداً
مادام الرجلان هنا ..

قال لى (بارتلييه) وهو يقضم بعض الكرواسان :

« كيف حالك يا علاء ، وكيف حال الزوجة ؟ »

« بخير يا سيدى .. لتأهب للرحيل قريباً .. »

قال (باركر) وهو لا يبعد عنيه الحلتين عن وجهي :

« هذا جيد .. لا بد أنك سعيد بالعودة إليك الجميل .. »

مجاهلات (باركر) لكن من سببه ، وتذكر بأن هناك مكتباً ما ..
لذا كنت فى حذر :

« سعيد جداً .. فلما مررت بالفصل .. »

« كنت فى رحلة فى جنوب أفريقيا .. هذه رحلة يرفع البعض
قوة للقيام بها .. »

« لم أر الكثير .. فقط كنت أصوت عدة مرات .. لم أذهب
للمساحة يا سيدى ، لو كنت لاحظت هذا .. »

قال (بارتلييه) بلهجة صلبية :

« سوف نفهم هذا كله فيما بعد ، لكن أريد أن أعرف رأيك
فى رحلة لمدة أسبوع إلى (غينيا الاستوائية) .. أسبوع
واحد .. »

نظرت إليه فى عزم فهم ، فقال :

- « أسبوع تعود بعده وتساغر لمصر مع زوجتك .. لا توجد مشكلات خطيرة .. »

(غينيا الاستوائية) تقع على مرمى حجر من الكامبيرون ..
كأنهم نسوا ثقباً بين الكامبيرون والجابون وبحسوا عن
قطعة ملاط تصد هذا الثقب ، فلم يجدوا إلا (غينيا
الاستوائية) .. ومن أغرب الحقائق أن خط الاستواء لا يمر بها
بأي شكل !

سألتهما عن المهمة التي لنا موكل فيها ، فقال (بارتلييه) :

- « إن المركز الرئيسي في النمسوا قلبي ، وقد أرسلوا الكثير
من التساؤلات إلى (سافاري - 1) في كينيا .. بالطبع كنا نحن
أول من خطر ببالهم .. فغينيا الاستوائية هي بشكل أو آخر جزء
من الكامبيرون .. »

- « فلقون من أي شيء ؟ »

قال (باركر) ، وقد تضليق لأنه صمت أكثر من خمسين
ثانية :

- « هناك من يدعى بروفيسور (كاربيرا) .. إته أسيقتى بدير مستشفى صغيراً فى جزيرة قُرب الساحل .. ربما تعرف لو لا تعرف أن البلاد هى - تقريباً - مستعمرة أسيقتية منذ القدم . هو مستشفى خاص لكن علامات استفهام عديدة تحيط بتمويله .. يؤدى بعض الخدمات المتواضعة ، لكن تجهيزه يوحى بأن هناك جهة غلبة فى الثراء تنفق عليه .. طبيعة البلاد تتيح لكل من هب وبه أن يعمل فيها ما يريد ؛ لهذا تشككوا فى طبيعة التجارب التى تجرى هناك .. »

قلت بلسمًا :

- « يبدو أنك تتحدث عن (جزيرة الدكتور مورو) .. هل أنت متأكد من أنه لا يُحوّل الوحوش إلى بشر بجراحات غامضة ... هل أنت متأكد من أنه لا توجد امرأة - فهد على تلك الجزيرة ؟ »
لم يضحك (باركر) ، وقال :

- « لن أستهبد هذا .. وفى النعسا لا يستهبون هذا .. فقط نحن بحاجة إلى جاسوس من الداخل .. »
- « وهو أمر مستحيل .. »

قال (بارتلييه) وهو يخرج ملفاً :

- « ليس إلى هذا الحد .. (ميشيل مرعي) .. هل تعرفه ؟ »

وفتح الملف .. نظرت إلى الصورة الموضوعية في الهندسة ، فوجدت صورتى الهندسية وقد بدا على لهما .. لكن باقى الهندسات كان كلاماً فارغاً .. لنا فرنسي في الأربعين ، من أصل عربي ، مختص في الهندسة الوراثية .. ما هذا الكلام ؟

قال (بارتلييه) باسمًا :

- « كان المستشفى يبحث في معهد بلستير عن خبير هندسة وراثية يصل معهم .. استطعت بعلاقتي أن أحصل على الطلب ، وقمت بتفريق هذا الملف .. هناك نسخة منه على مكتب (كاربيرا) الآن .. واضح أنني اخترتك أنت لأن أصلك العربي يتفق مع الكلام .. »

- « وكيف أرسلت الملف قبل طلب موافقتي ؟ »

قال (باركر) بضحكة رقيقة لطيفة كشفت عن أسنانه :

- « هذا هو الجميل في الموضوع .. الأمر ليس اختياريًا ، بل هو تكليف .. يمكنك الرفض بكامل حريتك ، ويمكنك العودة لبلدك ، لكنك لن تعود طبيعيًا .. هذا مفهوم .. »

قال (بارتليبه) وهو يخلق الملف :

- « ليس الأمر بهذه الصعوبة .. سوف تذهب .. تمضي لسبوعًا هناك مفتوح العينين والأذنين .. تعود .. تحكي لنا كل شيء ، كلُّه (ماركو بولو) القائد من بلاد الفرس .. لا نطلب منك سرقة ميكرو فيلم ولا لتحام خزان ومطاردات عبر المعربات بصلاح آلى .. هذا ليس فيلمًا سينمائيًا ، لو لاحظت هذا .. »

محتاجًا كنت ، شاعرًا بالعجز :

- « لكن من قال أنني ألهم أى حرف فى الهندسة الوراثية ؟! .. سوف يلتضح لمرى بعد ثلاث دقائق .. سيعرفون أنكم أرسلتم حمارًا .. »

قال (بارتليبه) فى جدية :

- « جميل .. جميل .. لن تكون أول حمار يتأخر للتضاح لمرء لسبوعًا .. كنت تعرف ما يخطئه الحمار الحقيقي .. اليوم أنا

مرهق فدعوني أسترح .. أريد رؤية إمكانيةكم .. أنا بحاجة إلى
مختبر واسع مكيف .. هل لديكم محلول (هاتك) ؟ .. لا ؟ .. أنا
لا أستطيع عمل أي شيء من دون محلول (هاتك) .. سوف
أنتظر في غرفتي حتى تجلبوا لي محلول (هاتك) .. ثم .. أتم
غير جادين .. لقد أمضيت هنا أسبوعًا بلا أي تقدم .. سوف
أرحل .. ولتعلموا أن الذئب ننبكم .. هكذا .. »

كتمت ضحكتي .. للرجل يعرف هذه الأساليب إذن .. ليس
بالرجل السهل أبدًا ..

- « وماذا لو استدعيت (كليريلا) هذا المناقشة علمية مثمرة ؟ »

- « يمكنك دومًا خداعه . لكني سأعطيك بعض الكتب ومحلضرة
قصيرة توحى بأنك غارق حتى أنفك في الهندسة الوراثية .. »

هكذا صار ظهري للحائط ، ولم يعد أملني سوى القبول ..

أسبوع ..

إن يؤذي أحدًا ..

2- مستشفى الدكتور كارييرا ..

لهذا يمكنكم أن تروني مرهقاً في مطار (مالابو Malabo) ..
 (مالابو) هي عاصمة (غينيا الاستوائية) التي تقع على حافة
 بركان قديم خامد في جزيرة (بيوكو) .. لقد جئت هنا بطائرة
 تخص الخطوط الجوية الأسبانية ..

خرجت من المطار لأجد المنظر الذي أنشرونى منه ..

لنا - بلا فخر - في واحدة من أكثر دول أفريقيا ثراء بالنفط ،
 لكنها كذلك أكثرها فساداً .. لهذا يصب كل هذا النفط في جيب رئيس
 جمهوريتهم ، بينما لا تصل منه قطرة إلى الشوارع القذرة التي
 تصبح وسط المجارى .. لا يمكنك أن تتكلم ؛ لأن (غينيا الاستوائية)
 من أشد خمس دول في العالم قمعا لحرية الصحافة .. هي كذلك
 من أعلى عشر دول في معدلات الفساد ..

هناك شوارع معدودة تستحق هذا الاسم ، وهناك مبان معدودة
 كذلك .. الكثرة البالية .. المحكمة .. لابد من أن تكون المحكمة
 أنيقة ، في بلد قمعي كهذا ..

في كل مكان ترى صور الرئيس (نيونورو أوبينج مباسوجو) الذي تولى الحكم بعد ما تخلص من عهده عام 1979 وأخذه .. البعض يقول أن هذا خلط في الأسماء وأن الرجل ليس عهده على الإطلاق .

على كل حال لم يكن لهم ملاكاً .. لقد أعدم 150 من معارضيه في مرة واحدة في الاستبداد ، بينما السماعات تردد أغنية (ميري هوبكنز) الأفريقية : « كانت تلك هي الأيام يا صاحبي .. ! » هذا أول إعدام شاعري سمعت عنه في حياتي ..

في كل مكان ترى الأطفال لقراءة وعلامة الفكر على الوجوه .. يمكن أن أعد عدداً لا يحصى من الأمراض هنا بمجرد التنظر ..

كلما سمعت أخيراً كهذه رجت أتصالح : « هل كان الاستعمار أفسى على الأقطار الأفريقية من هؤلاء فعلاً ؟ ! » .. هؤلاء الأطفال يجعلونك تعبد للتنظر في مصيبتك .. أما لو من بلد أفريقي للأفريقي ، كما كان ذلك للتشيد الجميل يقول ، لكن أفريقيا كذلك ليست لطاغية وقد مثل (بوكاسا) و (أوبينج) .. هؤلاء أفسى

على شعوبهم من أي استعمار .. ولهذا ، منذ استقلت معظم القطن
أفريقيا والحروب الأهلية في كل مكان ، وقد اضطر أفراد أحد
الوفود الأفريقية في مؤتمر بالأمم المتحدة إلى تغيير العلم ثلاث
مرات أثناء مؤتمر استغرق أسبوعين ! وتساءل أحدهم وهو
يركب الطائرة علناً : « لا أعرف ما إن كنت أعود لبلادي فأخذ
وساماً أم يتم إعدامى في المطار ! »

لقد تم اكتشاف البترول .. للكثير منه في منتصف التسعينات ،
وهذا قلب أوضاع البلاد وجعل صراع السلطة دامية ، لكن عامة
الناس لم يشعروا بأي فرق يفكر ..

من حسن حظي أن المطار موجود على ذات الجزيرة التي
يوجد فيها مستشفى د. (كارييرا) .. هذا يعني أنني لن أركب
أي قارب .. فقط أنتقل إلى الجزء الجنوبي من الجزيرة ، وهو
مقاطعة أخرى تدعى (لوبا) ..

من مكاني أرى البحر المتلاطم .. هذا بالضبط هو الساحل
الغربي لأفريقيا عند مفصل فك الجمجمة الأفريقية للصلالة .

تَنَكَّرُ لِنَفْسِي قَضَيْتُ فِتْرَةَ أَسْفَلِ النَّفْسِ فِي جَنُوبِ أَفْرِيقِيَا .. الْآنَ
لَجَرِبِ مَفْصَلِ لَفْكَ لِمُدَّةِ أَسْبُوعٍ ..

مَرْحَبًا بِكَ يَا (عِلَاء) .. أَرَبَا الطَّيِّبِ الْمَصْرِيِّ الْوَسْمِ .. فِي
(غَيْبِيَا الْإِسْتَوَالِيَّةِ) .. الْمَسَدِ بِلَادِ فِي أَفْرِيقِيَا كُلِّهَا !

كَانَ الْمَسْتَشْفَى أَثَقًا بِالْفِعْلِ ، وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُمْ لَنَفَقُوا عَلَيْهِ
بِسَخَاءٍ .. إِنَّهُ يَمْتَدُّ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ لِمَسَاحَةِ لَا بَأْسَ بِهَا ، وَقَدْ
لَحِثْتُ إِلَى وَقْتٍ لَا بَأْسَ بِهِ كَيْ أَفْهَمُ أَنَّهُ يَتَكُونُ مِنْ بَنَائِتَيْنِ
مَتَقَاطِعَتَيْنِ عَلَى شَكْلِ حَرْفِ X مَعَ لِمَمَّةٍ حَدَائِثَةٍ وَاضِحَةٍ ، فَلَا يَدُ
أَنْ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا التَّكْوِينِ جَعْلُهُ بِشَبْهِ الْكُرُومُوسُومِ ..

هَنَّاكَ مَسْتَشْفَى عِمَالِي لَجَرَّاحَاتِ الْمَخِ فِي أَلْمَانيَا ، تَمَّ تَصْمِيمُهُ
عَلَى شَكْلِ مَخِ عِمَالِي ، وَيَبْدُو أَنَّ الْأَمْرَ يَتَكَرَّرُ هُنَا ..

الْمِصَارَةُ الَّتِي أَكْتَسَيْتُ مِنَ الْمَطَارِ تَكْخُلُ مَعِي ، وَمِنَ الْوَاضِحِ
أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الْمَسَاقِي ..

هناك عدة نقاط أمن تحيط بالمكان ، ونظم الأمن تنكرك
بمصر للجيش . إلا أنك لو تجاوزت هذه النقاط المثيرة للتوتر ،
سوف تجد حديقة غناء تمتد إلى مرمى البصر ، تتوسطها نافورة
أنيقة من الطراز الذي يقذف تيار ماء في جهة ، ثم يقذف تياراً
في جهة أخرى ، وهكذا .. شبكة معقدة من تيارات الماء .. هناك
مقاعد يجلس عليها مرضى الفارقة .. يتكلمون الأسبقتية فعلاً
وليس لفتحهم الوطنية ..

عشب تمت العناية به ، تمشي فوقه قطعة عشب تشبه اللبنة
الصغيرة ..

للمرضات صناديق المظهر يركض هنا وهناك .. لاحظت أن لهم
طابعاً شبه أمريكي جنوبي ، ثم عرفت فيما بعد أنهم كوبيات ..
علاقة كوبيا بهذا البلد قوية جداً ..

يمكنك من أية نافذة في الطابق الثاني أن ترى البحر تمتد
لمالك .. نحن في جزيرة مهمة وكبيرة ..

أخرجت للكاميرا والتقطت بضع صور .. لا غرابة في أن ألتقط
صوراً لهذا المكان الجميل ، فلن أثير الريبة من حولي ..

التفتى ممرضة إلى ممر طويل أثيق .. للصمت والهدوء
صوتنا كل شيء .. لا مرضى على الإطلاق .. لا توجد علامة تتم
عن نشاط آدمي ..

في نهاية الردهة يوجد مكتب صغير ، فيه سكرتيرة أسياتية
أخرى .. ثم مكتب كبير ، نقت بابه وأفتحته وهي تضحك لي
ضحكة مشرقة .. هنا شممت رائحة عطرة ، ورأيت للمرة الأولى
الدكتور (بابلو كارييرا) ..

رأيت علماء كثيرين في حياتي ..

رأيت علماء يبدون كإبطال القصص المصورة ، بالرأس الصلعاء
واللحية والضرود ..

رأيت علماء صفار الحجم مذعورين ..

رأيت علماء مهيبين شديدي الوسامة ، يبدون كممكلي السينما ..

لكنى لم أر قط عالماً يتحرك بشكل الوغد فى الأكلام .. لهبة
 للبارك .. الشارب الرفيع المنسق ، والنظرة للناعسة اللزجة ،
 والأنامل الطويلة ، والشعر اللامع المصطف بعناية ، مع لون شاحب
 يوحى بأنه لا يرى الشمس أبداً .. وجه تغرير بالتمساء وإفراط
 فى الخمور ونذالة وكسل و ... من الغريب أنه فطن لطبعه
 فصمم على أن يدخل سجن طويلة سوداء يضعها فى ميسم ..

لا أريد أن أتناقد الإخوة الأسبان ، لكن يجب أن نقول إن له
 طبعاً أسبانياً واضحاً كذلك !

كانت أول كلمة قلها هى :

« حلقبك .. »

ثم تدارك فقال :

« حلقبك يا د. (مرعى) .. هناك من سيخون بها .. »

كان صوته رخواً لزجاً كشكله. لا أتمنى أن أكون فتاة غريبة
 مع هذا الرجل أبداً .. أحياناً يكون من المفيد والمطمئن أن تكون
 رجلاً. لكن هناك شيئاً غريباً فيما قلته فطنت له بعد قليل ..

كان يتكلم العربية .. ١

هل هو فسخ ؟ .. ثم تذكرت أنني فرنسي من أصل عربي ..
لا توجد مشكلة في أن أفهم ما قل .. لذا قلت في دهشة مقتطعة :

« عذراً ! Pardon ! »

« لا تنس أن كل أسبقي يحمل جزءاً من الثقافة العربية في تكوينه .. أنا أمت بقرابة لـ (Moor Moor) .. هل تعرف من هم ؟ »

« العرب الذين ظلوا في الأندلس بعد اقتصار الأسبان .. »

« أنا أمت لهم بقرابة بعيدة ، لكن دعنا لا نضيع الوقت في هذا الكلام .. إنما لا نلقي خبرات علمية كثيرة في هذه البقعة النائية .. ودعني أصرحك أن (معهد باستير) اسم له هبة ،
ولقد شعرت بتوتر قبل لقاءك .. »

هذا الرجل للزج لا يمكن أن يتوتر لأي سبب .. أشعر بأنه
ثعبان ينص في الظل منتظراً للحظة المناسبة .. سبحانه الله ! ..
لم يحدث في حياتي أن كنت تطباعاً سلبياً عن إيمان بهذه
المسرة وهذه الدرجة من قبل ..

قلت له ، ولما أجلس متحاشياً نظرقته :

« تذكر أنكم لم تطلبوا خبر هتمة ورثية ، لكن طلبتم مختصاً في الموضوع .. الفارق كبير .. لست الأفضل لكنى لأصعب ما تريدون .. »

« فهمت أنك مستعصى معنا أسبوعاً لتتعرف على أسلوب العمل ، ثم تعود إلى فرنسا لتسوية أمورك وترجع لنا إن كنت نيتك البقاء .. »

« هذا صحيح .. »

كان ملفي مفتوحاً أمامه بقلب صفحاته بأتماله الطويلة ، وهو ذات الملف الذي سهرت مع (بارتلييه) نراجعه ..

قال لي وهو يقلب للصفحات :

« بالعكس .. إن أبحاثك مثيرة جداً ، وقد قرأتها جميعاً .. »

ثم قرأ بصوت عال :

« The Genetic Engineering of Hematopoietic Stem Cells: the Rise of Lentiviral Vectors, the Conundrum of the LTR, and the Promise of Lineage-restricted Vectors »

ثم قال متمعنا :

- « موضوع غنية في الأهمية .. معك في هذا البحث د. (ليكس تشنج) .. هل تعرفه ؟ .. أنا قابلته في نيويورك .. »

يا للكرثة !

كنا متفائلين عندما حسبنا أننا قادرون على الخداع مدة أسبوع . واضع لكني ستكشف بعد ثلاث دقائق ..

لكني على كل حال كنت قد أعدت بعض الردود للشعبية ، لذا ضحكت في تواضع وقلت :

- « لم لفته ولا أعرفه .. أنا مجرد مشارك في هذه الورقة مع أسماء علاقة .. لم أخط إلا بشرف مراسلته ، لكن علاقة معهد باستور هم الذين قاموا بأكثر العمل .. أنا ترس صغير يا سيدي ..

ولكن كنت قد رأيت أبعاد من غوري فلأنتسى صعدت فوق أكتاف
العائلة .. «

قل من دون أن يضحك :

- « ليونان .. »

- « ماذا عنه ؟ »

- « هو الذي قل هذا .. »

- « ولما أزيد بهتف .. »

راح يقب الأورق بحثاً عن مقلب آخر .. ثم قرر - فهما يبدو -
أن الكور من المرح يتكلمه ، فلا داعي لتهديد هذه اللذة بسرعة ،
ولن جرماً جولوه وفك :

- « سوف نتكلم عن أبحاثك بصورة تفصيلية أكثر غداً ، لكنني
راغب الآن في أن تتبادل فريق الفصل هنا .. »

3- المختبر ..

للمرأة التي بخلت كلت نموذجًا للممرضة كما حلم بها من
لبتكروا مهنة التمريض ..

في الأربعين هي .. ثياب بيضاء أنيقة ، وحذاء مطاطي أبيض
تشعر بأنه لو لمس سروالك لامتص الحذاء .. على الوجه نظرة
حازمة مهذبة ، وثمة خصلة واحدة - شائبة أرستقراطية - تنجلي
على الجبين .. عيان تشعان نكاء وتهنئًا ، لكنك كذلك لا تتمنى
أبداً أن تصير عدواً لها .. ونكرتني براهبات المدارس التبشيرية
في مصر .. كيف تتعامل هذه السيدة المحترمة مع هذا الشعب
الآسي للزج ؟! .. لابد أنها تعفته ..

طبعاً من الواضح أنها ليست الطريقة .. لكنها كذلك لا تحمل
طابع أمريكا الجنوبية مثل باقي الممرضات هنا ..

- « الأخت (ماري هوارد) ، بريطانية ، وهي رئيسة التمريض
هنا .. رقيقة كلامك مع المرضى ، حازمة كالجنرالات مع فريق
التمريض وأحياناً الأطباء .. »

أبتسمت لى بحزم ، فقلت :

- « واضح .. يبدو أنني اخترت الجانب الخطأ .. كان يجب أن
أكون مريضاً .. »

هزت رأسها وقالت بالفرنسية :

- « المرضى هنا فقراء جداً ، وبالمسكون .. معظمهم من قبيلة
الفتاح .. »

كنت أعرف الفتاح من الكامبيرون .. إنهم موجودون على
الحدود في البلدين .. إن امتداد بلدان أفريقيا الطبيعية لا يخضع
للخرائط كما تعلم .. لكنهم هنا يمثلون 85% من السكان ، وهم
يتكلمون لغة خاصة يسمونها (البولو) في الكامبيرون .. إن
عدم يتزايد .. وقد بدعوا يقضون على سكان البلاد الأصليين
من البانتو .. معظمهم يعيش على هذه الجزيرة ، بينما هناك
قبائل أخرى ضعيفة على الساحل ، يطلق عليهم كلمة اسم
(بيلروس) ، وهي لفظة تعني (قوم الساحل) بالأسبانية ..

قلت مواصلة :

- « لا أريد الكلام في السياسة .. لكن هذا البلد يُحكم بطريقة سيئة .. النتيجة هي أن كل هذا الثراء لا يصل منه ملوم إلى هؤلاء .. كل البترول ملك للرئيس (لوبيتج) .. »

لتحجج (كاربيرا) بمعنى أنه لا يرغب في مزيد من الكلام ، وهذا شيء له ما يبرره .. في هذه البلدان القمعية يمكن للمرضعة أن تتكلم ، لكن المدير هو من سيعاقب ، إذ كيف يسمح لها بهذا الكلام ؟!

على كل حال ، من أين يتلقى تمويله إن لم يكن من الحكومة ؟ .. كل هذا الهداخ حكومي على الأرجح ، وهو يجازف بأن يقطع مصدر رزقه لو حدث سوء تفاهم ..

لكن ما الذي تجنيه الحكومة من هذا المستشفى ؟

يمكنني فهم سبب الفضول للقاتل لدى رجال سلفاري في انحصار ..

قل لنا (كاربيرا) وهو ينهض :

- « أعتقد أنه يمكن أن نرافق ضيفنا العظيم في المستشفى .. »

كان يلبس بذلة أنيقة ، فترع السترة كشفًا عن قميص غالى الثمن ورباط عنق ثمين ، وتناول معطفًا أبيض من فوق مشجب ، ووضعته على كتفيه .. إنه عرض أزياء أكثر منه طبيبًا جلدًا ..

غادرنا الغرفة إلى المعمر الطويل الخلقى من المارة بالخارج ، وقال لى وهو يمشى وسطنا :

- « سوف تلاحظ أن معظم المحادثات هنا تتم بالأسبانية ، وأن القليلين جدًا يستعملون اللغات المحلية .. هناك لغة ثلاثة مهمة جدًا واستعمالها يتم بأوامر حكومية ، هي اللغة البرتغالية .. الرئيس هو الذى أدخل هذه اللغة لتصير بلاده ضمن رابطة الدول المتحدة بالبرتغالية .. وهذا يعطيه مزايا مادية لا شك فيها .. »

قلت فى حيرة :

- « هذا يعقد الأمور جدًا .. فرنسية وأسبانية وبرتغالية .. »

.. « مشكلة فعلاً .. لهذا خصصت لك مترجماً من الأسبانية إلى الفرنسية .. سوف يصحبك أثناء العمل .. لتفاهم بيني وبينك سيكون بالعربية أو الفرنسية لو أردت .. »

.. « أفضل الفرنسية .. »

ولم يكن هذا عن تعالي لو (الأظنة) لا سمح الله ، ولكن لأن عربية الرجل كانت نوعاً من التعذيب .. أصوات لغة عربية سمعتها في حياتي .. يبدو أن اللغة العربية صعبة فعلاً ؛ لأن من يتكلمونها ببراعة قلائد ..

هنا تصليت رئيسة التمريض ، والتفتت إلى الوراء في خفة وبقلة ، كأنها نمر متربص ..

لم أفهم ما تنتظر إليه ، حتى رأيت تلك المريضة الرشيدة تمشي في نهاية الممر مرتدية حذاء ذا كعبين عاليتين ، وكانت تحاول أن تحدث لكل منجاة ممكنة ، لكن صوت (كليك كليك) كان عالياً حتى ..

قلت الأخت (ماري) مفكرة :

- « حذاء ممنوع .. هم م م ا... أرجو أن تسمحالى .. لابد
من فهم هذا .. »

بالطبع هو خطأ قتل فى أى مكان .. يجب على الممرضة أن
تنتقل بلا ضوضاء ، كالمراشمة ..

هكذا تركتتا فى حزم ، ماشية تلك المِشية للنشطة المصممة ،
كأنها جنرال فى الجيش الكمبودى .. وعرفت أن تلك الممرضة
سوف تلاقى لحظات عصيبة ..

واصلت المشى مع د. (كاربيرا) الذى لم يعلق على ما حدث ،
وأخيراً توقف أمام باب معلق كتب عليه (المختبر) ..

قال لى وهو يدفع الباب :

- « د. (لامبير) رجل عبقري .. سوف تحبه على
الفور .. »

فى الدلخل كان هناك مختبر مجهز على أعلى طرق .. هناك أكثر من جهاز معقد لم أميز من بينها إلا جهاز (إلبزال Elbza) .. وما عدا ذلك ، كتبت الأجهزة متقدمة جدًا .. هناك أكثر من ثلاثة راسية وأكثر من مجهر حديث .. عدة شاشات كمبيوتر مضادة لتراقص عليها الأرقام وتلك للمصار الحائزون للمميز لخطوات اختبار (إلبزا) ، لكن الأمر يتجاوز هذا طبعًا ..

حسى ألا تكون هنا مسألة مخرجة ، لو اكتشف أن الجهاز الذى أمامى هو الجهاز الذى تخصصت فيه طوال حياتى ، كما تقول الأبحاث .. !

كان د. (لامبيرت) رجلاً فرنسيًا ذا خبرة ثيقة فعلاً .. له عنوان حائتان صارمتان من الطراز الثاقب ، وأعتقد أنه حاد الطباع كذلك .. رأى فقال له (كلريبيرا) :

« هذا هو صديقنا العربى الفرنسى (مرعى) .. أعتقد أنه صديقكم لك مساعدات جمة هنا .. »

قال (لامبيرت) وهو يضبط بأصبعه على الصرحار :

- « تشرقنا .. أنت شلب حديث السن ، لكن ليست لدى تطاولات
مسيبة .. لعلم لا من له .. »

قلت في تواضع :

- « لكن الخبرة لها من .. لهذا اعتقد أنني سيكون تلميذاً
لك .. »

نوح يده في عصبية .. وإن أبركت أن حجر المجاملة الذي
لقنته أحدث دوائر في روحه ..

قال وهو يضع سيجاره :

- « معنى هذا . (مايرز) الأقمى .. يمكنك أن تعتبر أننا
مسئولان عن المختبر معاً .. لو أردت أن تمتدح للمكان فلنأ
جاهز .. لو أردت أن تنتقده فـ . (مايرز) جاهز ! »

ضحكت لهذه العبارة ، لأجد يدى فجأة بين كامل قوبة مكتزة
لرجل أصلع قرأ من ملتح بصفتنى .. بدوره كان يضع سيجاراً
هائل الحجم ، وقد قال لى وهو يلقي من وراء عويلات مستكبرة
خفية :

- « فيلكومن .. شون .. زير شون .. »

نظرت مستغرباً إلى كارييرا ، فقال ضاحكاً :

- « لا تخف .. هو جيد للفرنسية ، لكنه يحب أن يثبت للناس

أنه ألماني قبل كل شيء .. »

كان البروفسور (مايرز) هذا يجلس على مقعد ثلاثى ذى

عجلات ، يتنقل به فى وضع الجلوس ، فلما صافحتى انزلق

بالمقعد ليعود إلى المنضدة التى كان يعمل عليها ..

ما أغرب هذه العوينات !.. إنها تبدو كالعيون للمقلوعة فعلاً !

لاحظ دهشتى ، فقال وهو يرفع عيناً منها بالجمت :

- « عيون ثيران ..!.. هي ما تصيب أنك تراه فعلاً ..!.. أنا

متحمس لهذا النوع من مزارع الهكتريا .. يقولون أننى عتيق

الطراز ، لكنى مصر على أن عيون الثيران والبهطاطس وسيطان

ممتازان .. »

قال الفرنسي في شيء من السخرية :

- « كنت أت من معهد باستير لهذا تعرف أساليب الأمان
غير اللعنة .. إنهم يجمعون بين الغرور وعدم الكفاءة .. »

قال الألماني في ضيق :

- « وأنتم الفرنسيين .. مجرد نجوم صحافة .. المهم أن
تعضروا المؤتمرات وتنتف حولكم الحسنات وتجلسوا في
المآتب الفاخرة .. بعد أعوام لا يبقى شيء من هذا الذي
اكتشفتموه .. »

ضحك (كاريرا) طويلاً ، وقال لي وهو يجنبني من فراعي :

- « هذه هي العصبية القومية .. هذا المختبر يضم عالَمين
شامخين ، لكنهما مصران على حرب ضروس أبدية بين ألمانيا
وفرنسا .. على كل حال هذا لا يؤثر في العمل .. »

4- المشرحة والعيادة النفسية

قسم الأشعة يحتل طابقاً كاملاً من هذا المستشفى ، وقد عرفت الأجهزة بسهولة برغم تقدمها .. لو أن جهازاً من هذه في سلفري لا هترت الأرض .. هناك أشعة مقطعية وأشعة رنين مغناطيسي .. أشعة مقطعية ثلاثية الطور .. جهاز رسم الأوعية الرقمية للطرحى DSA .. جهاز PET الذى يجرى فحصاً مقطعياً بقمع البوزيترون ..

ما هذا للتراء ؟!.. كان كل مل الدولة قد تم صبه فى هذا المختبر .. عم يبحثون ؟ ..

من الصعب أن يتوقع المرء أن هذه الدولة الشبيهة بنقطة على الخريطة فيها أجهزة أمن وأحدث من معظم أجهزة أفريقيا بأسرها .. ربما يمكن أن تجد هذه الأجهزة المتكسدة فى جنوب أفريقيا .. فى كوب تون بالذات ..

لم يكن عند العاملين هنا كبيراً .. مجموعة من الفنيين للصوتين الذين ينتقلون كالطير من جهاز إلى آخر ، ولكن هناك

من يجلس خلف نافذة زجاجية يراقب منها جهاز الرنين
المقناطيسي الذي وقد عليه مريض الفريق مسن .

للحبة الصلابة من جديد ، وهذه المرة لرجل نكى للنظرات ،
يضع يديه في جيبى معطفه وينظر إلى في فضول ..

قال (كاربيرا) وهو يضع يده طويلة الأنامل على كتفى :

« هذا د. (مرعى) ضيفنا .. د. (سليمان) رئيس قسم
الأشعة .. إنه ألقى كنتك ، لكن لا تدع هذه النقطة تغتفك ..
كلهم يجود الفرنسية .. »

صافحت الرجل في توتر ..

ثمة شيء ما غريب في هذا المستشفى ، لكنى لا أعرف كنهه ..
ما موضوع هذه اللقى الكثيرة ؟ ما هذه العلامح الغريبة
المتصلة ؟

قال لى (كاربيرا) ونحن نقدر قسم الأشعة :

« هنا تجتمع الكفاءة مع لتكلم العلمى لتصنع خليطاً مبهراً ..
والآن اعتك أنك متعب راغب في النوم .. هل أنت كذلك ؟ »

نظرت إلى ساعتى فوجدتها للرابعة عصراً .. ليس موعد نوم
إلا لمن هو على سفر مثلى ، والحقيقة أن ذهنى كان مرهقاً إلى
درجة أننى صرت راغباً فى أن أترك بنفسى وأغمض جفنى
بضع ساعات .. الإرهاق سوف يجعلنى أخطئ ..

ماذا سيفعل الرجل عندما يعرف أننى نصاب ؟ .. لا أعرف ..
سوف يطربنى طبعاً ، لكن ماذا يوسعه غير ذلك ؟ .. ربما يستمنى
للشرطة .. هذا اقتحالى شخصية لا شك فيه ، واسوف يكون على
أن أمر بالحقت عصابة إلى أن يستخدم (بارتايبه) نفوذه
واتصالاته ..

إنى يجب أن أنام .. من ناحية لأستريح ، ومن ناحية لأقلل
فرص الاحتكاك بيننا ..

أسبوع ! .. رباح ! .. شد ما هو طويل !

أفكرتتى ممرضة أسبائية حسناء إلى جناح هادئ تغمره
إضاءة زرقاء جميلة ، ونولتتى بطلقة إلكترونية ، وابتسمت قليلة
بفرنسية مضحكة ساحرة :

- « غرفة ثالثة .. يمين .. »

في هذه اللحظة سمعت صراخاً مروعاً .. صراخاً جعل قلبى
يسقط فى قفسى ..

تركتها وجريت مسرعاً لأخرج من ذلك الجناح ،
وفى الممر الخارجى رأيت رجلاً وسيدة مسنة أفرقتين
بمسكان بفتاة شابة سوداء تقاوم كتبها تذبح .. كانت تحاول
للتخلص حتى اضطرا إلى أن يحملها بالعرض .. أحدهما
للسائقين والآخر للذراعين .. لكنها كفت تصرخ كمن يحترق فى
جهنم ..

طبعاً كان المشهد واضحاً .. هذه ليست محاولة اختطاف ، بل
الفتاة فى حالة هستيرية مرعبة ، وقد أدركت أن العجوزين
يسيطران عليها بصعوبة كتبها خنزير برى ..

ظهر بعض الممرضين وبعض الممرضات وراحوا يتعاونون
على حمل الخنزير البرى إلى عيادة كتب عليها (العيادة
للنفسية) .. يبدو أنهم كانوا ذاهبين إليها فعلاً ، لولا أن الهياج
استبد بالفتاة ..

دخلت معهم لأجد نفسي في غرفة قديمة متلاهاؤها بالخان ..
هناك طبيب ملتج نصف لصنع ، يقف في مركز الغرفة وقد لمس
يديه في خاصرته ، يراقب الموقف ..

قال لأحدى الممرضات بالأسبانية ما أعنيك أنه :

« ديلي أن بوتشو دي دياريام .. »

ثم أفهم سوى كلمة (دياريام) وهي كافية طبعا ..

من مكان ما ظهر المحقق ، وعلى الفور تقرب من في عروقي
الفتاة التي أطلقت صرخة ، ثم لعب العقار برأسها فبدأت تهدأ ..
لم تتم طبعا ، لكنها صارت (مسطولة) بالمعنى الحرفي للكلمة ..

قال للممرضات بالأسبانية :

« دخيلا .. »

فاتصرفن .. أنا نصير على أن بوسحك فهم 60٪ من لغة
بالإيماءات . نظر إلى ولم يقل شيئا عن تصرفاتي .. فقط جلس
على مقعد خلف الفتاة وراح يكلمها .. يكلمها بالأسبانية وبصوت
هادئ رخيم . فبدأت تتكلم .. تتكلم ناعمة وبصوت هادئ ..
تتكلم كثيرا جدا ..

لاحقت أنه أشعل سيجاراً وهو يكلمها ، وراح ينفث سحابة دخان كثيفة .. هذا المنظر ملوِّف لى ، لكن أين ؟ .. واضح أن هذا المستشفى لا يعلق أهمية كبيرة على التخزين .

اتجهت إلى الباب فقابلت د. (كاربيرا) .. كان يتسم اهتمامه للزجة ويراقب الموقف ..

قال لى بصوت هاس ، وهو يقتلنى إلى الخارج :

- « د. (فرايدمان) حجة فى التحليل النفسى .. إنه ينتزع من الفتاة سبب هذه النوبة الهستيرية .. كالعادة سوف يتضح أن الأمر يعود لكبت جنسى قوى .. »

قلت له ، ولما أغلق الباب بخفة من خلفى :

- « ألا ترى أن هذه الطريقة صارت عتيقة جداً ؟ .. لم أحسب أن هناك من يمارس التحليل النفسى إلا فى أفلام الخمسينات .. الأبيض والأسود والظلال والرغبة للناجمة عن شعورك بأنك تخترق النفس البشرية .. »

- « لدينا أطباء كثيرون يحبون التحليل النفسى .. هو نمساوى على فكرة .. »

- « إن اسم (فرايمان) ليس له تفسير آخر .. ألمتى أو
نمساوى أو مهاجر من هذين البلدين إلى الولايات المتحدة .. »
وما لم ألقه هو أن الاسم يهودى كذلك ..

قال لى ، وهو يمشى جوارى فى الرواق :

- « هل رأيت غرفتك ؟ .. لا ؟ .. تعال إذن معى نشاهد المزيد
من المستشفى ، ثم نقرر براحة مستحقة .. »

لو لم أسمع تلك الصرخة لفررت منه لعدة ساعات .. أمرى لله ..
نزلنا فى مصعد جداره كلها مرايا إلى الطابق الأرضى ،
والرجل يثرثر عن المستشفى وعن الخدمات التى يقدمها
للمرضى ..

قلت له فى غيظ :

- « معلومتى أن سكان غينيا الاستوائية لا يتناولون نصف
مليون نسمة ، بينما هذا المستشفى يصلح لعلاج عشرة
ملايين .. »

ضحك فى لزوجة ، وقال :

.. « هذه هي فكرة إشماته .. البحث العلمي أولاً .. الخدمات
 للصياحية ثانياً .. هل تصدق أن هذا المستشفى يمكن أن يكون
 مشروعاً صياحياً عظيماً ؟ .. الصياح يكون هنا للاستشفاء من
 الكثير من الأمراض التنفسية .. ممثلة للسيلما التي ترغب في
 تصغير أنفها .. للرجل الذي يرغب في إزالة شعوم بطنه ..
 هؤلاء يدفعون جيداً جداً ، ويستجمعون على الملح رافع الجمال ،
 ثم يعودون لأوطانهم ليحكوا لأهلهم عن التجربة .. »

لق جرس المصعد فنزلناه ..

هناك في نهاية العمر خافت الإضاءة ، لمحت للكلمة الرهيبة
 Autopsy .. للتشريح يتم هنا .. لو كنا في وحدة سفاري لرأيت
 (جيبون) ومساعدته الكوري ..

فتح باباً ذا زنبرك قوي ودخل ، ثم مد يده يبقيه مفتوحاً
 كي لا يحطم أنفسي ، وفي الداخل كتبت هناك جثة رائدة على
 منضدة رخامية وقد تغطي نصفها بملاءة ، بينما كان البطن
 مفتوحاً ..

.. « د . (مارسيل فابرس) .. بلجيكي .. »

وجئت لئننى أقف أمام طبيب آخر من نوى للحيبة لكثة ..
ينظر إلى فى فضول وهو يتسم .. ككثت بداه ملوثتين فى
قمارهما ؛ لهذا لم يصافحنى ، وإنما قال بالفرنسية :

- « مرحبًا .. أنت إذن خبير الهندسة الوراثية ؟ »

قال (كارييرا) :

- « د. (فيليس) من أهم علماء التشريح والبيولوجيا فى
أوروبا .. هو متضيق لأنه لا يوجد شيء جديد فى علم التشريح ،
حتى إنه يتمنى لو غزا سكان الفضاء الأرض ليتمكن من جمع
معلومات تشريحية جديدة .. »

قلت ضاحكًا :

- « هناك تلك الفيلم المزيف الذى صدعوا رعاونا به لتشريح
مخلوق (روزويل) .. لقد اعترف صناعه اليوم كيف نحتوا ذلك
الكائن وكيف ملئوه بأحشاء الدجاج كأنها أحشاؤه .. ربما كان
بوسعك أن تشارك فى التشريح .. »

قال الرجل دون أن يضحك :

- « ربما لو وجدت إسقاطاً جديداً لأمكننى أن أشرحه !.. أريد أعضاء تشريعية جديدة ! »

ونظرت إلى عينيه اللامعتين وأتت لتفمى :

- « هذا الرجل ليس على ما يرام ! »

★ ★ ★

5- حيوانات التجارب ..

من جديد عدت لغرفتي ، ونسيت البطاقة في فتحة الباب ،
ثم أدت للمقبض ..

كنت مظلمة ؛ لذا بحثت في الظلام عن موضع البطاقة
المجاور للباب كي يضاء النور ، وهنا سمعت من يتحرك في خفة
خارج الباب ..

استدريت بسرعة لأجد فتاة .. ممرضة هي .. لاتينية كما هي
للموضة هنا ، وصغيرة جدًا وجميلة ومذعورة ..

كنت تنظر حولها كأن الشيطان يطاردها ، واتسمت عينها
حتى إني ارتجفت خوفًا لنا نفسي ..

قلت لي وهي تضع إصبعًا على شفتيها :

- « أنت ذلك الطبيب الفرنسي ؟ »

- « فرنسي ؟ .. من ؟ »

ثم تذكرت أنني هو .. يا لي من أحمق ! ..

كنت تتكلم إنجليزية رديئة جدًا .. هذا للمستشفى برج بلبل
حقيقي ، فيه مليون لغة ..

قلت بصراحة :

- « أنا هو .. »

كنت جميلة فعلاً ، لكنها خالية من الأبوثة .. يعنى هو وجه طفلة جميلة خالفة لا أكثر ، وقد تنكرت على الفور قصيدة قديمة لنزار قباني ، يصف فيها حبيبته شديدة البراءة بأنها (ليست امرأة) .. هى من الطراز الذى يشعر بك (عمو) ولابد من أن تحميها من هؤلاء الأوغاد .. من هم ؟ .. لا أعرف .. لابد أن هناك بعضهم ..

قلت لى بصراحة :

- « لا توجه أسئلة .. أنا أدعى (لوتشيا) ، وقول لك : إن عليك أن تفر من هذا المستشفى بأسرع ما يمكن .. ! »

- « لكن ... »

وقبل أن أكمل كلامى كانت ترمض مبتعدة لتغيب فى قلام العمر ..

كنت لم تضللى جيداً لبيتها الصناء .. فقط أعيت حرف النحن الخلفت الذى يتردد فى ذهنى .. كنت لعبت الدور الدائم فى كل فيلم غامض (خذ الحذر واهرب) ثم تفرين .. سوف أجسك

منبوحة غداً على الأرجح لأنهم عرفوا .. من الذين عرفوا ؟ ..
الأوغاد طبعاً .. هناك أوغاد ما تمت مذعورة ..

هلقت لحجرتي ولما أتمنى في صدقي ألا يحدث شيء آخر يعطل
نومي ..

اضأت للنور فرائت غرفة جديرة بقتلي خماسي النجوم .. فيها
سرير مريح مرتفع (أحب هذا النوع من الأسرة) من الطراز
الذي تنغوص فيه لمركز الأرض .. التكيف جيد مع أنه بدأ يعمل
منذ ثلثيتين .. شرفة تريك للبحر بوضوح .. بينما تتلوى غصون
لشجار لا أعرف اسمها من حديقة غناء تحتها ..

لهاجورة تغري بالنوم أكثر مما تغري بالقراءة ، وجوار الفراش
هناك أرفف للكتب والصور والصيقات .. بالضبط كلُّه فندقي فعلاً ..

نزعنا ثيابي واستلقيت على الفراش .. وبحشت عن هاتفي
للمحمول ..

نسيت أن أخبرك أنني أخرق .. هكذا ضربت الأهاجورة بكوعى
فسقطت أرضاً .. كراش ! ..

يا لها من بداية لوجودي هنا ! .. يا للحرج ! .. وثبت من فوق
الفراش وبحشت عن جريدة رحت لجمع فوقها شظايا الزجاج ..

هنا وجنته .. كان من حسن حظى لئلى لخرى .. ربما
تسرع فى الاتصال وكشلت كل شىء ..

ذلك الجهل ، صغير الحجم ، المتصل بملك بنسب وراء
الكومود .. لا يمكن أن يكون سوى جهاز تنصت ..

رفعت عنى بسرعة إلى السقف ، فوجدت أن المهمة صعبة
هذه المرة .. هناك صف من الدوائر الزجاجية التى تستصل ككيبور ..
هناك جهاز إطفاء مريب الشكل .. لو كانت هنا كاميرا فمن
المستحيل أن أعرف لها ، لأن كل هذه الدوائر للبرقاة يصلح أى
منها كاميرا .. نحن فى عصر الكاميرا للرقمية الدقيقة التى
لا تريد على حجم قطعة العملة ، ولتلى لا تتصل بملك ..

على كل حال ، لو كانوا يراقبونى بكاميرا فقد عرفوا يقينا لئلى
وجدت جهاز التنصت .. لو لم يكونوا يراقبونى فسوف يحسبون
الأمر مجرد خلل اتصال ، إلى أن يدخلوا للغرفة غذا .. ثم من
قل أن هنا جهازا واحداً ؟ .. ربما وجدت للجهاز الأقرب مثالا ..

على كل حال سوف أترجم للصمت .. أية مكالمات سيتم وأنا
فى الحقيقة .. لن أفعل أى شىء فى غرفتى سوى النوم.
وتذكرت سابقا أحد الجنرالات الأمريكان الذى زار الكرملين فى
الاتحاد السوفيتى سابقا أيام الحرب الباردة ، فقضى الليلة كلها

في غرفته يقرأ إعلان الاستقلال الأمريكي ويستمع الشبوعية بصوت عال ، وفي الصباح حيّاه المترجم السوفيتي بوجه مكشوف ، وقال له : « إن رأيك في الشبوعية يجب أن يتغير يا جنرال ! » .. هكذا يكون اللعب على المكشوف !

آههم يرافهوننى ..

من هم ؟ .. (كارليرا) ورجله الأوغاد .. ألم نتلق على أن هناك أوغادًا هنا ؟

لكن لماذا ؟ .. هل من الطبيعي أن تراقب ضيفًا جاء ليصل في وحدتك ؟ .. يريدون معرفة ما اعتقده وما فكر فيه .. لماذا ؟

سوف أقام ، ولأمل أنني لن أتكلم أثناء النوم وأقول أشياء مثل : « أنا لست خبيرًا في الهندسة الوراثية .. أنا مجرد جاسوس جاهل من وحدة سافاري جنت لأخرب بيوتكم .. » لو كنت هذا أثناء النوم فلنا استحق ما سيحدث لي فعلاً !

كان نومي هلكًا برغم كل شيء ..

اعتقد أنني لم أقلب لحظة حتى الصباح ، برغم أنني حسبت أنني سأسيقظ في منتصف الليل .. كنت مرهقًا فعلاً ..

خرجت من الغرفة ، وللمرة الأولى لنا من دون مراقبة أو مرافقة ، لكنى لا أعرف من أين أبدأ .. أعتقد أن على أن أقصد مكتب د. (كاربيزا) مرة أخرى لأتقدم ما على عمله ، وكنت أكره لقاء اليوم لثانى مع الرئيس الجديد دائماً ، لأننى تعلمت من خبراتى أن المرح ينتهى وأنه يصير سمحاً حارماً فى اليوم لثانى .. كلهم كذلك .. كأنه يقول لى : أليس كان الخمر واليوم الأمر !! .. انتهى التكليل يا صغيرى ..

مشيت بين ممرات المستشفى ألقابل من حين لآخر ممرضاً أو ممرضة يحمل سمات لسياتية لا شك فيها .. كلية الطب الوحيدة فى البلاد كويبة ، كما عرفت فيما بعد ..

هنا .. سمعت صوت نباح ، ورأيت مشهداً لا يصدق ..

هناك رجل شرطة يشبه شرطة الكلاب عندنا - عندما كانوا موجودين - بحذاء ذو رقبة عالية ، وفى يده عصا حديدية بآشرطة فى نهايتها ، وهو يجر كلباً هائجاً يمتلئ للعب من فمه وهو يتبحر ..

كان ميزان القوة مختلفاً ، لذا اكتفى الكلب بأن يدفن أطرافه فى الأرض الزلقة ليجره الرجل جرّاً محملاً صوت حفيف ..

مر جوارى فوثبت جتبا لأبتعد عن الكلب ، لأننى خمنت أنه
مسعور على الأرجح .. هذا الكلب القرير لا يبعث الراحة فى
التفكير ..

انفتح باب المختبر وقهر .. (لامبيرت) الفرنسى وفى فيه
المسحور .. رأى الكلب فقال عبارة استعصان بالأمسية ،
وشعرت من عنده أنه سيأكله مثلاً ..

ثم تنحى عن الباب ، بينما الرجل يجر فريسته إلى الداخل ..
رأتى (لامبيرت) لرقب المشاهد فى دهشة ، فضحك فى الغم
وقال :

- « مرحباً .. هل نمت جيداً ؟ »

قلت دون أن أرد على سؤاله :

- « ماذا تظنون بالكلاب فى المختبر ؟ »

- « لا شيء .. المزيد من البحث العلمى فى فيروسات الدماغ ..

لاحظ أنه كلب مسعور ، ومعنى هذا أنه مصدر فيروسات ممتر .. »

- « كم يقم باستير بكل شيء فى هذا الصدد ؟ »

ضحك طويلاً ، وقال وهو ينفخ رمد مسجوره على الأرض :

« كنت قادم من معهد باستير ، لهذا تعتقد أن الرجل عرف كل شيء .. إن العلم نهر لا تكفيك منه بضع رشقات بكفك .. »

ثم وضع يده على كتفى واقتلاني إلى الداخل ، حيث لم يكن هناك ثور للكلب لحسن الحظ .. لقد غلب في قفص ما ..

قال لي في حرارة :

« ولكن أريد أن تحبشي عن معهد باستير قليلاً .. أنا لم أراه قط .. جميل أن يكون هناك معهد كامل يحمل اسم هذا الرجل الذي ألقى حياته في مطاردة الفيروسات والبكتيريا .. هلم .. صفه لي ! »

شعرت بتوتر ، لأن هذا امتحان آخر ، لكن (بارتلييه) - لحسن الحظ - كان ثريلاً وقد وصف لي المعهد كمن رآه .. للناظرة .. تمثال للفتى الذي يعضه الكلب .. قاعة للمؤتمرات .. المختبرات ..

رجت أنكلم ، والرجل يصق لي في اهتمام ، ووجهه يحمر فعلاً .. هل أنا أحلم أم إن لمة توشك على التفرق في عيني ؟!

ما كل هذا الحماس ؟!

قلت له ضمن قصتي :

« لقد خللوا الرجل حتى على مستوى اللغة .. »

قال في اهتمام :

« ماذا تعني ؟ »

- « أعنى أنه صارت هناك كلمة اسمها (بستر) ، وهناك اللبن للمبستر .. »

علا يسأل لى مذاجة غريبة :

- « لبن مبستر ؟ .. هذا غريب ا »

هل هذا الرجل مجنون ؟ .. يبدو كأنه لم يسمع قط عن اللبن المبستر ، وهو خبير ميكروبيات .. وما سر كل هذا الفخر والحماس ؟ .. اللحظة شعرت بلئنى لكلم (باستير) ذاقه الذى يشعر بالفخر لما صارت له نكراه ..

ماذا يدور هنا ؟

6- مختبر الهندسة الجزيئية ..

هو ذا أخيراً ..

أراه في نهاية العمر وأنا أمشي له مع (كاريرا) ، لننكر
(الميل الأخضر) الذي يقطعه المحكوم عليهم بالإعدام نحو غرفة
الإعدام ..

لنمأى ثقبان ولا أرغب في التقدم .. لكن لابد منه ..

قال (كاريرا) وهو يفتح الباب الذي كتب عليه
: Molecular genetics

« اعتقد أنك مسرور بالعودة لعالمك الحقيقي .. هنا عنصر
الأصلي .. كما تشعر السمكة لدى إعلانها للماء .. »

قلت في حماس ، وأنا موشك على الهكاه :

« أحماض نووية .. قواعد .. كودونات .. ما أروع هذا ! »

ثم أختنى للتهرج بعداً عن الشاطئ ، فقلت :

« أحياناً أتمنى لو صارت الكروموسومات فتات جميلة
لتزوجهن واستريح ! »

في الداخل كان كل شيء يتلق مع صورتي عن مختبر هندسة وراثية .. نفس الأجهزة والكمبيوترات التي لا تكف عن التهدير ، والتلجك و ... كل شيء ما عدا البشر .. كنت أوقع أن أجد المكان مزيجاً بوجود صارمة عاكسة على أجهزة الميكروسكوب ، لكن ما رأيته هو معسل خال تماماً ، فلا يوجد سوى طبيب كوري أو ياباني يلخص بعض العينات عبر مجهر ضخم .

قال لي وهو يشير إلى الياباني :

- « د. (ماولاكي) هو خبير (موت الخلايا المبرمج) هنا .. وهو يلخص أسباب موت الخلايا في مجموعة من الأنسجة .. كنا نأمل في أن تساعد قدر الإمكان .. »

موت الخلايا المبرمج أو apoptosis هو نوع من الموت للخلايا بناء على شفرة جينية يحملها المرء منا ، ويعبرة أخرى : كل خلية في جسدنا جاءت للعالم وهي تعرف متى ينتهي أمرها ومتى يتسرب لها الكالسيوم وتتكمش نواتها ..

إن وجودنا يقوم على التوازن الدقيق بين موت الخلايا وخلودها .. إن تمت الخلايا أكثر من اللازم يهلك الكائن أو يتشيخ بسرعة ، وإن صارت الخلايا خلدة فالسرطان على الأبواب .. هذا التوازن الرباني الدقيق هو ناموس الحياة .. لكن كيف تطبل صر الخلية دون أن تعرضها للسرطان ؟ .. تلك هي المسألة ..

هذا لغز هائل حير العلماء ، لكن هناك جيوشنا جرارة من الباحثين تكف على دراسة الموضوع بالتفصيل .. إتهم بجمعون المعلومات بلا توقف ..

نهض الطبيب الليبتي وقد بدا أنه أصيب بالحول من التحقيق في المجهر ، برغم أن الصورة تعرض على شاشة عملاقة ، وهز رأسه محييا وقال بالفرنسية :

« مستشرف بالعمل معك .. إن أبحاثك مهمة جدا .. »

« وأنا كذلك .. هذا شرف لي .. »

كنت إنن رجلى للذى سيلضح لمرى .. جميل أن يعرف المرء شكل جلده مبكرا ..

قال (كاربيرا) وهو يتراجع :

« سوف أترككما معا ، ولا شك أنكما ستجدان لقاءهم سهلا .. »

ثم نظر إلى الليبتي نظرة طويلة لم أفهم معناها ، وابتعد ...

عندما انطلق الباب عاد الليبتي بفحص العينات التي أمامه ، ثم قال لي بلهجة عابرة :

« ما هي سياستكم بصدد التيلوميريز ؟ .. إبنى عملت لفترة على الكاثيسين ، لكن لا خبرة لي بالتيلوميريز .. على الأقل ليس في حيوانات المختبر .. »

قلت ولما لرن كلمتي :

.. « إن التيلوميريز مشكلة تؤرق الشباب من الجنسب ...أ...
تؤرق علماء معهد باستير ، لكنهم تغلبوا عليها .. هذا كلام كثير
ليس هنا مجله ، دعه من أن بعضه سر .. »

هنا لمتك بقطعة ورق ، وبدأ يخط عليها وهو يتكلم بصوت عال :
.. « تخيل أن التيلوميريز يصل هنا .. بعض الباحثين استطاعوا
وقفه هنا .. وهنا .. و ... »

لكنه على الورق لم يخط حرفاً مما يقول ..
كنت أرى بوضوح الرسالة التي يكتبها بالفرنسية :
.. « أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق .. لا تعتقد أنك خدعت
أحدًا .. يجب أن تفهم أن هذا المختبر مراقب بعدة أجهزة تنصت
وأكثر من كاميرا مراقبة .. »

إن هو يعرف أن كاميرا المراقبة لا تكسر على قراءة المکتوب
على الورق .. يعرف أنني جاهل كذلك ..

ثم قال لي بصوت عال :

.. « أين تقومون أنتم بقطع التيلوميريز ؟ »

تناولت الورقة ، والقلم وكتبت :

- « لماذا ؟.. لماذا يرالفون المختبر ؟ »

وناولته الورقة ، وقلت فى جدية بصوت عال :

- « أعتقد أن المشكلة يمكن حلها هنا .. ففكر فى الكاسبيز

والكالبين .. »

أمسك بالورقة وكتب :

- « لم تفهم بعد أنه ليس بوسعك ولا بوسعى الرحيل ؟..

نحن سجينان هنا ! »

نظرت إليه فى رعب لضحك ضحكة مشرقة معانها (تملكك) ،

ثم مزق الورقة بخطة وتخلص منها ، وعاد بفحص شائعة المجهر ..

قلت فى عصبية وقد نسيت طريقة التمثيل هذه :

- « أنا بالى هنا حتى ينتهى الأسبوع .. بعد هذا لا توجد قوة

فى الأرض تبقىنى ساعة أخرى .. »

قال فى تهكم :

- « أنت تقول ! »

إن أنا لم أخدع أحداً ، وهو ما توقعته .. عندما يطلبون منك أن تلعب مع فريق الأهل في نهاية الكأس وأنت لم تمس كرة لتقدم طوال حياتك ، فأنت تحتاج إلى ما هو أكثر من معجزة حتى لا يفتضح أمرك ..

لك السؤال : لماذا يخفون عنى أنهم عرفوا ؟ .. هل يتركون لى المزيد من الحبل كي أشتق نفسى به ؟ .. هل يتسلون ؟ ..

لا أعرف ؟ .. لكنهم أراحوا عبثاً عظيماً عن كاهلى على كل حال .. ليس على أن أظاهر بأننى عبقرى الوراثة .. أنا أعرف نفسى جيداً .. أنا جراح أملك نفسية جراح وعدوانيته وسرعة ملته . ولا أطربى أن أغرق فى تلك الرموز الوراثة المعقدة ولا كل تعقيدات الهندسة الجزيئية تلك ..

لقد فهمت أن المكان غريب . وفهمت أننى سجين .. لكن لم أفهم لماذا ..

ماذا يدور هنا ؟

تلقيت الإجابة وقت الغداء ، عندما مشيت مع الطبيب متجهين إلى الكافتيريا .. هذه وجبتى الأولى هنا ..

هنا فوجئت بالدكتور (كاريرا) ينفجر ضحكاً فى طبيب .. والطبيب لا يتكلم تقريباً ..

كان الطبيب يضغط بين أصابعه على مسجار ، ويتظاهر بأن الكلام غير موجه إليه . فقلت للنظر فلدركت أنه د. (فريدمان)
الطبيب النفسى .. ماذا هناك ؟

كان (كاريرا) يصيح بخليط من الأسبانية والفرنسية فهمت
بعضه :

— « مسجار مرة أخرى .. قلت لك يا د. (فريدمان) أن
تتوقف عن مص أسطوانة السم هذه .. لقد أصابته بالسرطان
فى المرة الأولى و ... »

وفجأة التفت للخلف فرأى .. هدا مرة واحدة وقال لى :

— « أ ... مخررة .. لنا لا أطيق التنخين فى مستشفى .. »

معه حق .. لكن لماذا يدخن هو كمحرقة لجنث ؟ ..
وما موضوع إصابته بالسرطان من قبل ؟ .. ولماذا يتر كلامه
عندما رأى ؟

يبدو أن هذا يوم الصراخ العالمى ، لأننى فوجئت بطبيبين
يتسلحران بالفرنسية وقد التفت حولهما عدد من المراقبين الذين
بدأ عليهم الاستمتاع ..

الرجل الأول كان ملتصقاً كالعادة ، لكن فى وجهه طابعاً غريباً
أكيذاً .. غريب هذا .. هل يوجد عرب هنا ؟

كان يقول وهو يرتجف غضباً :

« أنت لص .. »

الآخر كان يلهو .. رجل له طابع بريطاني واضح ، يمس يديه في جيبى مغطيه ويحاول ألا يتفعل .. فقط يقول في ثبات :

« هذا ما تقوله أنت وهو ليس صحيحاً .. كما مثلاً لرى أنك مجنون .. فهل هي حجة دامغة ؟ »

قال الأول عريس الطابع :

« كل لورافى العلمية عن الموضوع تسرقها أنت وتضع اسمك عليها .. لا تقل أن هذا تولد خواطر .. فجأة صارت الدورة للرؤية أهم موضوع يشغلك ، وقد كنت لا تهتم بها من قبل .. »

قال الآخر فى برود :

« صرت أهتم .. لا تقل أنك ستأمر بإعدامى لهذا .. »

من جديد (شخط) فيهما د. (كارييرا) بالأسبانية .. كان غاضباً فعلاً وللشرر يتطاير من عينيه ، ثم قال مفسراً الأمر ، وقد رأى دهشتى :

- « عالمان عظيمان ، لكنهما يتصرفان بطفولة .. سوف أحتاج إلى وقت طويل كي أجد عالماً عبقرياً ليس في طباعه شيء من الطفولة ! »

كان يشير إشمزلى بوجهه للطويل الممصوح ونظرة الأوغاد في عينيه .. هذا أمر مخادع ولا شك في هذا ..

واصل الكلام :

- « هذان خبيران في علم الباثولوجيا .. د. (كريم مختار) من أصل عربي .. د. (ويليام هارتمان) بريطاني ، ومن الغريب أنهما مهتمان جداً بذات الموضوع .. »

وهكذا اختنا إلى الكافتيريا ، وحملت صينية ، توجهت بها إلى الطاهى فى صف قصير لأخذ بعض الخضر المسلوقة وشريحة لحم وبعض المكرونة الباردة (نودلز) .. طبعاً لا أتوى لكل اللحم .. واتجهت لأجلس إلى منضدة شبه فارغة ..

جلس تلك الطبيب جوارى .. إنه ملتج كالعادة .. له تلك الطابع الغريب المميز للأطباء هنا .

تبادلنا التحية ، فقال وهو يقلب ما فى طبقه مرة واحدة :

- « لكسلدر لايتج .. أسكتندى .. »

حييته وابتممت .. لمت متبحراً فى اللهجات ، لكن طريقته
تذكرنى بالتطجين الذى أسمعه فى الأفلام .. هناك تطجين
أسترالى وتطجين أسكتندى وتطجين نيوزلندى وتطجين بصلصة
الصويا و ...

مد يده إلى سلة بها بعض الخبز فى وسط المنضدة ..
وملئنى :

- « هل أحببت (غنيا الاستوائية) ؟ »

- « لم أرها إلا لفترة قصيرة ، وما رأيت لم يبق لى .. »

ضحك ولحمر وجهه ، وقال :

- « لا تطن رأبك .. هذا بلد قمى بالمضى الحرفى

للكلمة ، والجدران لها آذان .. سوف تختفى ويلفون سطرارة

بلدك بأنهم يذلون جهداً جباراً للعشور طربك .. لن يحتاج

أحد لأن القترول أهم منك .. لهذا سيصمتون ويصير الجميع

سعاد .. »

وفجأة اقتطع اللقمة من الرغيف .. كانت مخطاة بطن الخبز
الأسود .. يا للقرف ! .. حسبته مشملزاً ، لكنه نظر إليه في
البهار .. ثم وضع اللقمة في جيب المعطف !

هنا فقط بدأت أشعر بصداع عنيف ..

هذا التصرف مأثوف .. مأثوف أكثر من اللازم ..

(ألكسندر فلمنج Fleming) !

7- البوابة ..

كانت واقفة تصدر تعليماتها لمجموعة من الممرضات ، وقد خلعن الرعوس واحتقنت وجوههن .. واضح أن هذا يوم .. يوم لسبائى ممتاز جداً ..

الأخت (ماري) رابسة للتمريض الحازمة قوية الشخصية .. بنوت منها ووقلت متهيناً ، حتى شعرت بوجودي ، فنظرت إليّ وقللت بلهجة رقيقة :

- « هل من شيء يا لكتور ؟ »

سألتها ولما نظرت حولي :

- « هل تعرفين ممرضة اسمها (لوتشيا) ؟ .. فتاة شابة رقيقة مذعورة بشكل مميز .. قلت لي أشياء غريبة ثم ... »

ابتسمت بطريقة أرسنقراطية وقللت :

- « هل تعرف كم ممرضة هنا تحمل اسم (لوتشيا) ؟ .. على الأقل هناك عشر منهن .. لابد أن خمساً منهن شابات رقيقات مذعورات .. »

قلت في حماسة :

- « جميل .. معنى هذا أن على أن أبحث بين خمس فتيات ..
هذه مهمة سهلة .. »

- « للأسف لا .. وقتي لا يسمح بهذا .. وأرجو أن تعطيني
سبباً واضحاً لهذا الطلب .. »

- « لا أستطيع .. »

- « وكذلك أنا .. أسفة .. »

واستدارت لتواجه الممرضة مواصلة عملية التوبيخ
بالأسبقية .

شتمتها في سرى ، وتركتها واتجهت إلى مختبر الهندسة
الوراثية .. هناك كمبيوتران يتصلان بشبكة الإنترنت .. سوف
أرسل رسالة بالبريد الإلكتروني إلى (برنات) أو (بارتلييه) ..

دخلت للمختبر وجلست أمام شاشة للجهاز ، ودخلت إلى
صندوق بريدي في (ياهووه) ..

هنا لاحظت في دهشة أنه لا توجد خطابات .. مستحيل ألا تكون
(برنات) أرسلت لي أي خطاب منذ سافرت .. أعرف أن هذا
مستحيل ..

بدلت أكتب خطباً قصيراً لها أخبرها أنني بخير ، وملفوها
بحافظ خفي أرسلته لغواتها وعنوتني أنا كذلك .. وانتظرت بعض
الوقت .. لا شيء .. المزيد من الوقت .. لا شيء ..

هذا يعنى ببساطة أن عملية تصفية محكمة تمنع وصول
الخطبات من وإلى صندوق بريدي .. هم هنا يعرفون بريدي
الإلكتروني على كل حال ، فلما أنهم يحتجزون رسائلي أنا فقط
أو يحتجزون كل الرسائل ..

لم يكن هنا أحد ، فمدت يدي في جيبى ، وأخرجت جهاز
المحمول الصغير ، وحاولت الاتصال بالكامبيرون .. لم تكن هناك
شبكة على الإطلاق .. غادرت المختبر وجررت الشيء ذاته في
الخارج .. لم يحدث شيء .. لا توجد شبكة ..

جدران هذا المستشفى تعزل أية إشارات .. هذه حقيقة ..
إنه سجن كامل فعلاً .. يبدو أن الليالي لم يكن مزح ..

« ممنوع الخروج يا دكتور .. »

قلتها لى رجل الأمن الأسود ضخم الجثة اللجس جوار الباب
الزجاجى الذى يقود إلى حديقة المستشفى .. ونهض ليبرهن
لى على أنه جاد .. لابد أن طوله متران ، برغم ما فى هذا من
مبالغة ..

صحت فى عصبية :

.. « لنا طبيب هنا ، ومن حق الدخول والخروج لى شئت .. »
قال فى تهذيب بمترج بالحزم والشراسة ، بالطريقة التى
يعرف كل رجال الأمن كيف يصطنعونها ..

.. « لا يوجد موقف شخصى منك .. هات لى تصريحاً من
د. (كاربييرا) ولنا تحت أمرك .. »

نظرت فى عينه فلم أر إلا نظرة غبية كنقرة كلب الحراسة
الذى لا يرتضى ولا يتفاهم .. لن يسمح لى بالخروج فعلاً ..

عنت مصرعاً إلى الدخول ، وهرعت إلى مكتب (كاربييرا) فلم
أجده .. سوف يكون اللقاء عصبياً لأننى سألتجر فى وجهه
ليشرح لى سبب هذا السجن .. لو كان يشك فى أمرى - ومع
حق - فلنيطردنى أو يسلمنى للشرطة ، لكن ليس من حق أية جهة
غير حكومية أن تحدد إقامتى ..

صت لغرفتى وأخرجت ورقة ، وبدأت أكتب عليها وفى
نيتى حرقها بمجرد أن أكتهى :

« لا أعرف كيف تم هذا ولا متى .. لكن هذا المستشفى
بديره أطباء الماضى للعظام ..!.. تكلم عن الاستئصال
أو تلمس الأرواح .. فلا تفسير عدى سوى أن هذه هى
الحقيقة ..

الدكتور الذى يجمع عطن الخيل .. لا يوجد دكتور يفعل ذلك
اليوم ، لكن هناك واحداً قديماً هو (فلمنج) مكتشف البنسلين ..
لقد وجد أن العطن يذيب مزارع البكتريا السبحية ، وحاول أن
يعرف المادة التى تحدث هذا الأثر ، وعزلها وأطلق عليها
اسم (البنسلين) ؛ لينال على ذلك جائزة نوبل عام 1945 .. ومثلاً
عن طبيب المختبر الذى يجمع الكلاب المسعورة والذى يريد
معرفة كل شيء عن (باستير Pasteur) ؟ .. تلك اللفتة توحى
لى بباستير نفسه .. إنه فرنسى فى منالسة عتية مع عالم
لماتى أصلع بصر على أن يجرب مزارعه فى عيون الثيران
وعلى البطاطس .. لو سألت جهاز كمبيوتر لقل لك أننا نتكلم
عن (كوخ Koch) .. قمر البكتريا .. الذى أخذ العالم من

وباء الدرن والكوليرا والجسرة للخبثاء ، والذي طالما احتقر
أعمال باستير ، واعتبره مجرد مهرج مولع بالصحافة .. »

وابتلت ريفي وعلت اعتصر ذهني محاولاً للتذكر :

« عالم نو أصل عربي في خلاف مع عالم بریطاني حول
الدورة الدموية .. نحن نتكلم عن (ابن النفيس) الذي اكتشف
الدورة الرئوية والتاجية ، ثم بعد قرون جاء طبيب بریطاني
اسمه (ويليام هارفي) درس في الجامعة التي تحوى مخطوطات
(ابن النفيس) ، وخرج على العالم زاعماً انه مكتشف الدورة
الرئوية .. هذا ليس تخريباً تحركه العصبية القبلية ، بل هو
موضوع رسالة نكتوراه فيها د. (الططاوى) في ألمانيا
وحازت على إعجاب الجميع .. كان اسمها (الدورة الرئوية طبقاً
للقرشي) .. القرشي هو ابن النفيس طبقاً ..

رئيس قسم الأشعة .. ليست هذه ملامح (رونتجن Roentgen)
مكتشف الأشعة ذاته ؟ .. ومذا عن هباري للتشريح في الطب
المسلم الذي بحث عن بشر جند بشرهم .. (فيساليوس Vesalius)
البلجيكي العظيم الذي أسس علم التشريح .. ألا يبدو مثل هذا
الرجل بالضبط ؟

لما عن رئيسة التمريض الحازمة الرقيقة المهيبة ، فلامحها لا تشير أسئلة .. إنها (فلورانس نايتنجيل Nightingale) رائدة التمريض البريطانية في حرب القرم .. أتت كان المرضى يلتئمون ظلها عندما تمشى في العابر ليلاً ، ويطلقون عليها (سيدة المصباح) لأنها كانت تحمل مصباحاً على النول ..

لما (فريدمان) اليهودي النمساوي المولع بالتحليل النفسي .. الذي لا يكف عن تدخين السيجار ، وأصيب بالصرطان من قبل لكنه مصر على التدخين .. أنت تعرف من هو فلن أهين ذكائك بكتابة اسمه .. »

ما لم أعرفه ..

ما لم يعرفه العالم ..

هو أن هذا المستشفى أعظم مستشفى على مر العصور ومنذ فجر التاريخ ! ..

إن الطاقم هو أعظم طاقم أطباء عرفه للتاريخ !

لكن كيف ؟

8- القبو..

تحترق الورقة ومعها عشرات الأسئلة ..

تحترق ..

الحقيقة أنني أصبحت بالبارتوريا ، لدرجة أنني رحت أبعثر
الرماد ، وفي ذهني أنهم يستعملون الكتابة على الورق المحروق ،
بطريقة كيميائية تتضمن وضع الورقة بين لوحين زجاج مع
مقصوروم وكحول .. شيء كهذا ..

كنت أرتجف ..

أرتجف ..

(علاء عبد العظيم) .. علاء المذعور ورغم أنه رأى كل
شيء من قبل ، لكنه رأى كل شيء قابل للتصديق ، الأمر هنا
يختلف .. هذا كابوس ..

(علاء عبد العظيم) الأحق الذي صار يؤمن بالخرافات ..

(علاء عبد العظيم) المنطقى .. من قال أنها خرافات ؟ ..
هناك جزء علمي لا شك فيه في هذا كله ..

خرجت من غرافتي ، ومشيت متوجسًا في العمر ..

لا أريد أن أرى أحدًا أو يراقبني أحد .. مستشفي المجانين
العملاق هذا الذي أنا سجين فيه .. لا .. لست مسجونًا ..
ما زال يوسعني أن أكتب من النافذة ..

لكنني أوجل هذا الحل الرهيب بعض الوقت ..

رأيت من يمشي في العمر قادمًا نحوي .. عندما اقترب أركت
لأهـ د. (فريدمان) المختص النفسي لليهودي .. باختصار
(فرويد) في صورته الجديدة ..

كان يمشي ساهمًا والعرق يخر جبينه .. نظر إلى نظرة عابرة
وواصل المشي ..

كان يجب أن أتكلم .. قلت له بصوت عال :

« د. (فريدمان) .. هل أجهزة المحمول كلها لا تعمل هنا ؟ »

لم يرد وواصل المشي ..

هل هو ثمل ؟ .. ثمة شيء غير طبيعي في مشيته هذه ..

هل هو ... ؟

في اللحظة التالية سقط على الأرض كهانون مثقوب .. هزعت
لأراه فوجدت أنه لا يتحرك على الإطلاق .. وجهه .. وجهه ..
ماذا أصاب وجهه ؟!

إنه لزج بصيل ، بالمعنى الحرفي للكلمة ..

لمست خده فالتصقت تلك المادة للزجة المقززة بأناملى ..
ورأيت بعض العظام تحت هذه القشرة التي تذيب ببطء ..
إن لحم وجهه يذوب فعلاً .. أنا لا أتوهم .

هذا الرجل يتحلل !

رأيت مشهداً كهذا منذ سنين ، مع هؤلاء الأشخاص المجمدين
الذين كانوا يغفرون ثلاثتهم .. ولحدهم سقط أملى وتحلل
لحظت .. نفس الانطباع ..

ركضت مذعوراً .. ركضت كما لم أجر من قبل ..

ركبت المصعد قاصداً مكتب (كاريرا) وقد التحمت بالمعنى
الحرفي للكلمة ..

كانت للمكثيرة الحناء تلف جواره توقع بعض الأوراق ،
وقد رفع عنقه والسيجار ذو المصم بين أنامله ، وتقلص وجهه
ونظر إلى في لا مبالاة من وراء المكتب ..

- « د. (فريدمان) ... لقد هناك ... ذاب أمام عيني ا »

نظر إلى في برود ، ثم أشار إلى مقعد :

- « هلا جلست ؟ .. (إيلا) .. هلا جلبت مشروبًا باردًا لهذا

الشاب ؟ »

ثم تخصص شاربه كما يفعل الأوغاد ، وقل :

- « هذا هو رابع شخص نفقده في فترة قصيرة .. هذه هي

المشكلة .. يتحللون فجأة .. »

نظرت إليه في دهشة .. هم يتكلم ؟

قال وهو يشعل سيجاره :

- « نحن عاكفون على حل هذه المشكلة ، ولهذا طلبت من

بصاعنا من معهد باستير .. »

صحت في عصبية :

- « أنا لا أفهم عن أي شيء تتكلم ، لكنني أريد بقوة الترحيل

من هنا .. كما لن أبقى هنا لحظة أخرى . »

قال ببرود :

- « فلتتكم بصراحة .. اسمع يا صديقي .. لن تغفر هذا
للمكان قبل إتمام مهمتك .. عندها تحصل على أجرِكَ كاملاً ..
لجرك وحريتك .. وحتى تلك الحين فأنت غير مسموح لك بتوجيه
الأسئلة .. »

- « أنا أريد معرفة شيء واحد .. هل هؤلاء القوم حقاً من
لتصور أنهم هم ؟ »

- « لا أبلّى بما تتصوره ولن أعطى تفسيرات .. أرجو أن
تعود إلى المختبر الآن ... »

تصاعد غرقى .. التوتر عندما يتزايد يتحول إلى غضب
مجنون ، وهذه هي اللحظة التي يقتلون فيها .. هكذا نهضت
وصحت :

- « ليس من حق أحد أن يرفضنى على البقاء فى مكان ما ..
أنا مستقيل .. »

- « لست موقفاً عندي لتستقيل .. »

- « إننا راحل .. منصرف .. هارب .. مغادر .. مضمّنز ..
أى شيء .. منْ تصرفى ما أريد .. »

واندفعت خارجاً من المكتب ، ليصك بي رجلا لمن أقربائى
لا أعرف كيف سمعا للمحاضرة ..

- « اهدأ يا نكتور .. »

- « لا نريد عنفاً .. »

(علاء عبد العظيم) المشاكس الأحمق يركل أحد الرجلين فى
قصبة رجله فى موضع مؤلم للغاية ، ثم يركل الآخر فى أسفل
بطنه ..

(علاء عبد العظيم) الرشيق يثب فوق الرجل الذى تكوم على
ركبتيه محاولاً للفرار ..

طبعاً ليتلقى ضربة قوية بمقبض ممسك على رأسه ..

هذه الضربة جريتها مع أناس كثيرين ، لكنها لا تحدث أى أثر
تكريباً ، فلماذا تنجح معى دائماً وألقد وعى ؟

لابد أنهم يضربون نقطة محددة يعرفونها جيداً ..

(علاء عبد العظيم) للطفل النائم الذى ملأ الدنيا صراخاً ، ثم
صمت فجأة كأن بطاريته فارقت ..

كنت فى قهو ..

كنت مقبداً إلى مقعد .. وكان (كاربيرا) يقف جوارى برأى
وجهى .. هناك رجل أسود يبدو أنه مهم كذلك .. يلبس بذلة
مدنية أنيقة .. تكن لتقطع ذراعى إن لم يكن عسكرياً .. عناء
بيضوان واستعان تنظران إلى فى نهم ..

غثيان شديد يغمرنى .. أريد أن أفرغ معتنى ، لكن لأقول هذا ،
لأنى لو فعلت وأنا مقيد لأفرغت كل شيء على سروالى ..

المشكلة هى أن هذه الحبال محكمة ومن نوع ثمين ، فلا أمل
أن تنزلق أثناء محاولتى التملص ..

عندى نوع خاص من رهاب الأماكن المظلمة ؛ هو لئنى أشعر
بالاختناق عندما أقيد .. هذه مشكلة أخرى ..

لا داعى للصراخ .. هذا مجهود ضائع .. لابد أن شريكى
فعلت من هذا الكثير ..

نعم .. نظرت إلى ركن المكان فوجدت فتاة مقيدة فى ذات
الوضع تقريباً . فتاة بدينة صغيرة الحجم واسعة العينين ..
وكلت ترأبهنى فى ذعر ..

(لو تشيا) ..

كما توقعت تملأنا .. صحيح أنهم لم يقتلوا ، لكنها تُعاقب
بتهمة (الكلام أكثر من اللازم) كما هي العادة ..

كل شيء يصير وفقاً للمصير .. فمن أدهش لو أفرغوا طلقة
رصاصة في رأس كل واحد منا خلف الأبن اليماني ، ثم تخلصوا
من جثتنا ..

قال (كاريدرا) بطريقة المهنية للرجة :

- « فعلاً أنا أسف لما وصلت إليه الأمور .. أصدق بأن أطلق
سراحك وأنت قيودك ، مع عبارة اعتذار رفيعة من رجل الأمن
الذي ضربك ، لكن لابد أولاً من أن أشرح لك القصة .. »
قلت له :

- « أنا أعرف القصة .. »

- « أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق .. »

وأشار إلى (لوتشيا) وقال :

- « هي كذلك حسبت أن توسعها أن تمارس بعض الوشاية ،
وأن تلعب دور الفتاة المنذرة في قصص (جيمس بوند) ..
للأسف لا يمكن عمل هذا هنا .. إن الحكومة قد أفلقت مبالغ
باهظة على هذا المكان ، واستأجنت خبراء تنصت من المخابرات

المركزية الأمريكية .. باختصار يصعب أن تطير نبلية هنا من دون أن تصورها ثلاث كاميرات على الأقل .. صدقتي ليس هذا رخيص الثمن ، لكنه فعل .. »

ثم أشار إلى الرجل الأسود الواقف جوفاء ، وقال :

- « لن أنكر أسماء ، لكنه ترى ولحداً من أهم القادة العسكريين هنا ، وهو يقابل رئيس الجمهورية يومياً .. لهذا يمكنك أن تدرك أن الحكومة تبارك ما نفعله وتمولاه ، وفرصتك في النجاة مضومة تماماً لو حاولت أن تتحدثا .. »

هنا تذكرت ما قاله لي ذلك الطبيب المهم بالنسائين :

- « .. سوف تختفى ويبلغون سفارة بلدك بأنهم يبنون جهداً جباراً للثور عليك .. لن يحتاج أحد ، لأن البترول أهم منك .. لهذا سيصمتون ويصير الجميع سعداء .. »

فعلاً لا أهمية لي على الإطلاق وسط هذا كله .. فلر يقف أمام جنزير نبلية .. هل ينكره أحد أو يرثيه أحد بعد ما يتحول إلى بقعة دم على الجنزير ١٢

هز (كليريبرا) رأسه وأشعل سيجاراً ، وقال في تهذيب :

- « سوف نطلق سراحك وتعود للمختبر .. سوف تعود لممارسة تجاربك .. فقط أريد أن تكون واضحين معك وأن ينتهى كل هذا الزيف .. سوف تنام فى حجرتك وتعمل فى مختبرك .. كل شيء كما هو ، فيما عدا الخروج .. للخروج يافنى وعندما تنتهى المهمة .. »

أى جنون هذا ؟!

من المفترض ، لو كان يعرف كل شيء ، أن يعرف كذلك أننى لا أفقه شيئاً فى الهندسة الوراثية ولا البيولوجيا الجزيئية .. اليباتى قال بوضوح أنه يعرف أننى جاهل .. واليباتى يستقى معلوماته من كاربيرا .. هو لم يجربنى إلا فى جملة واحدة صبر أن تفضحنى ..

هؤلاء القوم يلعبون بى ..

فكرت فى هذا بينما قيودى تحل .. بينما ألهض ..

ونظرت إلى الفتاة المقيدة .. طبعاً من الصعب أن أطلب منهم أن يفكوها إكراماً لى ..

9- الشلابة ..

جلست في المختبر مع الطبيب الياقنى أرمى للشلابة التى ارتسمت عليها صورة لخلية فى حالة سينة .. هناك شلابة أخرى أرى عليها محققاً يمتد إلى جدار خلية .. يسحب النواة منها .. ثم يغمد المحقق فى جدار خلية أخرى .. أرى النواة تنزلق إلى الداخل ..

قلت له ولما تشير إلى الشلابة :

- « على قدر علمى ، هذه خلية تتحلل .. »

قال وهو يعالج بعض المحولات ليزيد من وضوح الصورة :

- « نعم .. الكالسيوم يدخل وتنفذ الخلية خواصها .. هل ترى

هذه الخطوط الشبيهة بدرجات سلم ؟ .. إنها صبغيات الخلية ..

تتفكك بهذا الشكل ، ثم تتكمش النواة .. »

قلت محاولاً تذكر ما درسته من قبل :

- « أنت تتحدث عن apoptosis .. موت الخلايا المبرمج ..

ما الجديد هنا ؟ »

حك شعره الناعم ، وبرزت أسنانه أكثر ، وقال :

- « لماذا ؟ .. لماذا تقرر للخلايا أن تموت في لحظة بعينها ؟ ..
هذه هي المشكلة التي تواجهنا .. الموت الذي يحدث في لحظة
بعينها .. »

تذكرت مشهد موت (فريمان) عندما تحلل أمام عيني .. لابد
أن هذا هو الأمر ..

قال لي وهو يضع عينة أخرى :

- « عليك بالثلاجة في الغرفة المجاورة .. أرجو أن تحضر لي
الأنبوب رقم b78 - 9 .. سوف أفتح دائرة الإنذار .. »

وضغط على زر أحمر فصار لونه أخضر ..

واضح أنني كنت سأموت بصدمة كهربية لو جربت أن أفتح
الثلاجة من دون فتح الدائرة .. لو بلغة السينما المصرية (فحش
الهوامش) ..

نهضت وأنا مقلظ ..

إن هو بحاجة إلى مساعد مختبر وليس إلى طبيب .. لهذا
أطلقوا سراحي ..

اتجهت إلى الغرفة المجاورة .. فتحت بابًا غليظًا له مقبض ثقيل كأبواب الخزائن .. بالدخول كان البرد قارسًا يتراكم على شعر ساعدك وحاجبتك في صورة قطن أبيض .. الحقيقة أن بخار الهواء نفسه يتجمد .. الإضاءة لرقاء مقبضة .. اعتقد أنها نوع من الأشعة فوق البنفسجية ..

هناك أبواب اختبار معنية متراسة جنبًا إلى جنب .. هناك لرقام ..

بالفصل وجدت الأنيوب رقم b78 - 9 .. كان تقرب إلى عتبة السجار ، فعالجت القفل العلوي وأخرجت من الأنيوب المعنى لنويًا أصغر من زجاج ..

في الدخول محلول رائق .. هناك نسيج في قاع الأنيوب ..

هناك ملصق صغير على الأنيوب كتب عليه (فرود) ..

ما معنى هذا ؟

مدت يدي إلى أنيوب آخر .. أخرجت منه نويًا زجاجيًا كتب عليه (روبرت كوخ) ..

لا أعرف معنى هذا .. لكن من الممكن أن أعرفه فيما بعد .. هكذا سميت أنيوب (كوخ) للزجاجي في جيب .. على الأرجح

لا توجد كاميرا في هذه الثلاجة ، وعلى الأرجح هم لا يلتشون الجيوب من حين لآخر .. سوف أعرف مر هذا التصيح يوما ما خارج هذه الجزيرة ..

أغلقت الثلاجة وعدت لليلتي بالعينة ، فقام أولاً بقلق للدائرة (تفريش الهوامش) ثم أخرج الأكبواب للزجاجي ..

قلت له متظاهراً بأنني أقرأ الاسم أول مرة :

- « لماذا كتبتم (فرويد) على هذا الأكبواب ؟ »

هنا جاء صوت (كاريرا) من الخلف يقول :

- « نعم .. قلت أنه من حقك أن تطعم ياد . (مرعي) .. »

قال د. (كاريرا) ونحن نجلس حول قداح القهوة التي يتصاعد منها بخار كثيف ، يمتزج بدخان سيجاره :

- « قبل ان يتكلم العالم عن الاستنساخ بأعوام ، كنت أنا أدرس أبحاثي سرّاً .. وعرفت الإمكانيات المروعة لكشف كهذا .. الاستنساخ - كما تعرف - هو عملية تكوين كائن حي باستخدام خلايا غير جنينية من خلايا الجسم ، أي من دون حيوان منوي ولا بويضة .. وهذا الكائن المتكون يكون مطابقاً من حيث الجينات للحيوان الذي

أخنت منه الخلية الجسمية .. تخيل أن أدير مستشفى يعمل فيه أعظم أطباء التاريخ ، الذين قمت باستساع أعضائهم .. أنت تحتفظ بأهم عقول في التاريخ .. تحتفظ بها للأبد .. إن (رونجن) مكتشف أشعة إكس لا يعرف حرفاً عن الأشعة المقطعية أو أشعة الرنين المغناطيسى ، لكن لا شك في أنه سيتعلم ما هو أكثر ، وسوف يتفوق على الطماء الآخرين .. عندما تبتكر أنت شيئاً ويظهره الناس ، ثم تعود أنت لتراه ، فبك تتعلمه أسرع من سوك وتكون الأفضل .. باستير عندما يعمل في مجال الفيروسات سيكون أفضل بالتأكيد من أى عالم يعمل في معهده اليوم .. فقط يحتاج إلى بعض الوقت كي يفهم التقنيات الجديدة التى استجبت .. لقد حلمت بهذا ورحت أعمل عليه أعواماً لا حصر لها .. »

بدا على وجهى أننى أملك آلاف الاعتراضات ، لكنه قاطعنى رافعاً كله فى حزم ، وقال :

- « لابد من أن أعرض قضيتى كاملة ثم أسمع رأيك .. لن نناقش الأمر نقطة نقطة .. أنا من أصل عربى قديم جداً كما تعرف ، ولهذا أعرف ولعم بمقاطعة للفكرة قبل أن تكتمل .. لابد من وقت .. لابد من اعتراضات شكلية ، وفى النهاية لا تتنكر حرفاً مما كنت تريد قوله .. »

لنت بالصمت معترفاً للنفس بأنه قد يكون وهذا ، لكن كلامه
مطول ..

قل مواصلاً الكلام :

- « كنت أحلم بأن يكون هذا كله في مستطلي واحد !.. ملكي !..
كان حلمًا وقد تحقّق !.. لكنه موشك على الانهيار ! »
هنا لم أستطع أن أكنم أراقي أكثر ، فالتفجرت قللاً :

- « لآبد من حمض نووي .. لآبد من DNA .. من أين لك
بحمض (فرويد) أو (هارفي) لتنوي ؟ !.. من أين لك بحمض
أين للتنفيس ؟ ! »

ضحك في سعادة ، وقل :

- « الاستمساخ لعبة صعبة . لكن الأصعب منها أن تجد الأنسجة ..
وهذا هو الجزء الأعقد مما كنت به !.. مثلاً (سبالاتزالي) الإيطالي
رأى علم ولفائف الأعضاء ، كان قد ترك ميراثاً غريباً ، هو
مئاته .. كنت قد حظيته في التبول طويلاً ، لهذا أوصي بتركها
مطوية للأجيال القادمة كي يعرفوا ما كان فيها .. هذه المثلثة موجودة
اليوم في ميلانو في متحف كلية الطب ، وكل ما عليك هو أن تلجأ
إلى الرشوة والعمل السري من أجل الحصول على قطعة صغيرة

ربما بحجم رأس نهوس منها .. هكذا صرت تملك الحمض النووي لسبالاتزلى .. فرويد أصيب بسرطان اللسان وسقط الفم .. العينة ما زالت موجودة .. الأمر صعب فعلاً لكنه ممكن .. يمكنك أن تجد المظاهر التي دفن فيها (كوخ) ، وتحصل على بعض العظام تثبت عمرها بطرق إشعاعية كي تثبت أن عمرها يقترب من عمر العالم .. هذه عملية تستغرق عدة أعوام ، لكنه في النهاية تملك أعمدة من معظم الأطباء المشاهير .. للأسف لم أجد أية عينة من طبيبك العظيمين (ابن سينا) و (الزهرلوى) .. مع أن الأخير كان حنينا فيما أطلقتم عليه الأندلس .. »

ثم تنأى وقال :

« بعد هذا تبدأ عملية الاستساخ .. تجمع الحمض النووي ضمن كروموسومات ، وتحقنها في خلية مفرخة ، ثم تجمعها ببويضة انتزعت نواتها .. تمرر شحنات كهربية فيكون الجنين الذي يتطابق 100% تقريباً مع الكائن الذي أخذنا منه الحمض النووي ، ونزرعه في رحم بديل لأم الطريقة تقبل هذا الدور .. كل شيء يؤكد أننا لو وضعنا الوليد في بيئة تشبه بيئة العالم المنسوف لحصل على عالم آخر .. هذه حبكة رواية شهيرة اسمها (الأولاد من البرازيل) للكاتب إيرا ليفين ، حيث يحاول العلماء أن يلتوا بهتتر جديد لعالمنا .. »

رفعت حاجبي معترضًا ، لقلت :

- « أعرف ما تريد قوله .. بعض هؤلاء العلماء تقترب منه من المستين ، وهذا يعني أن التجربة كان يجب أن تبدأ منذ ستين عامًا .. أقول لك : إن لعبة الجينات التي أمارسها تصرع من عمر الكائن الوليد .. نحن نجعله يمر بالعالم الواحد كئله 12 عامًا ونصف .. هكذا يصيرون مراهقين بعد عام ، ثم يصيرون شبانًا بعد عام آخر .. مع تعليم مكثف .. كل هذا مع تمويل سخى من حكومة (غينيا الاستوائية) .. وفي النهاية أنت رأيت النتيجة .. إن رونتجن هو رئيس قسم الأشعة .. المختبر يعمل فيه باستير وكوخ .. المشرحة يشرف عليها فيساليوس .. ابن النفيس وهارفي عالمًا أمراض .. لدى فلمنج ولدى جنر .. ولدى لوسلر للأمراض الباطنة ، وهلمستد للجراحة العامة .. كان لدى فرويد وشاركو يشرفان على قسم الأمراض العصبية والنفسية .. لكنهما تحللا للأسف .. كريستيان برنار Christiaan Barnard شخصيًا يشرف على جراحات القلب مع نورمان شمواي Norman Shumway^(*) .. الجميل في الأمر أن هناك أطباء أحياء في بلاد بعيدة لا يعرفون أنهم يمارسون الجراحة في مستشفى في (غينيا الاستوائية) !.. هذا ليس مستحيلًا .. لا تنس أن هناك نسخًا بشرية بيتنا اليوم !.. التوازم ! »

(*) لم يكن شمواي جراح القلب العظيم قد تولى وقت سرد هذه القصة .

قلت له فى حيرة :

- « ربما كان هذا مغرباً .. لكن ما جدواه ؟ .. بعارة أدنى :
مذا تجنى حكومة (غينيا الاستوائية) من هذه الأبحاث الباهظة ؟ »
لبتسم وقال :

- « كل دكتور يحطم بالخلود .. (تيودور أوبريچ ميسوجو)
حاكم البلاد لا يريد أن يترك شعبه بعد رحيله ، لذا يريد أن
يستسخ نسخة أخرى منه تحكم بعد وفاته .. تحكم للأبد .. يبدو
هذا غريباً ، لكنه عرف بأبحاثى وعرف أننى أملكه الوحيد .. من
ثم هيا لى أن أغير هذا المستشفى وأن أكون سيد الجينات ..
نحن نتحرك بنجاح تام .. وعما قريب سيكون لدينا (أوبريچ)
صغير نطمه كل شىء ، لكن مشكلة تحلل الخلايا للعينات هذه
بدأت تضايقتى .. فجأة بدأت نعالجى تتحلل .. أنت رأيت كيف
ذهب فرويد أمام عينيك بلا إقرار .. »

قلت له :

- « أنا أعرف أن استنساخ البشر خطر دوماً .. الحيوانات
المستنسخة تعفى ضعف جهاز المناعة وسرعة الإصابة بالأمراض ..
بعضها جن أو مات فجأة .. النعجة (دولى) الشهيرة أكلوها عام
2003 بعد إصابتها بسرطان الرئة والتهاب شديد بالمفاصل .. »

قال على الفور :

« لقد تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن .. ما نحن فيه مشكلة جديدة تمامًا وهي ما مضيتى .. أنا لا أتوقع منك أن تعرف ، لكنك ما دمت جئت هنا فستبقى معنا أطول فترة ممكنة ، ولما كنت لا أقوى تقبيك بالأصلا فى القهو ، فبئنى أتوقع أن تصل مع البهلى لتستحق طعامك ! »

★ ★ ★

10- الغرفة ..

نعم يا د. (بارتلييه) .. أعرف أن هذا الكلام لن يصلك ، لكنى
لأقضى الوقت متخيلاً التقرير الذى سأكتبه لك يوماً ما ، والذي
يصف الحال هنا ..

إذن كل هذا البحث العلمى له هدف واحد ، هو أن يوجد
(أوبيتاج) للأبد !.. هذا المستشفى يضم فرويد ورونتجن وكوخ ،
لكن الغرض من وجودهم ليس تحسين الخدمة للمرضى قدر ما
هو عمل بروفاات بانتظار الهدف الأعظم : أن يوجد (أوبيتاج)
جديد !

لن يقبل الطاغية أن يعرف أن التجربة ما زالت تتمر .. لن
يقبل أنصاف الحلول . وبالتأكيد سوف يحزن لو رأى نسخته تتحلل
وتذوب .. ربما قتل (كاربيرا) ..

المشكلة الأخطر هى أننى لست سجيناً فى المستشفى فقط ، بل
أنا سجين فى (غنىبا الاستوائية) كلها إذن ، ما دام هذا كله يتم
بمعرفة الحكومة .. سوى ليس سور المستشفى ، بل سور
البلاد كلها ..

إننا هنا كي نساعد اليلبتي على إيجاد حل لمشكلة تدهور الخلايا .. اليلبتي طبيعي وليس مستعسفاً ، وهو مذعور كاره بشدة لصله .. لكنه مرغم ..

يقول لي وهو يلمح بعض العينات :

- « هل ترى هذا الجسم للصبغي الغريب ؟ »

نظرت إلى الشائبة وأقسمت له أنني لا أرى شيئاً ..

هكذا يقوم بالعمل الذي صار طبيعة لديه .. يتناول ورقة ويخط عليها كلمات وهو يتكلم كلاماً عظمياً لا علاقة له بما يكتبه ..

نظرت إلى الورقة فوجدت أنه كتب :

- « التريتوفان .. لابد من تربتوفان في طعامهم .. حاول منع

ذلك .. جرب المطبخ .. »

نظرت إليه للحظات غير فاهم .. التريتوفان حمض أميني جوهري .. أي أنه لا يمكن الاستغناء عنه للجسم ، ولكن ما معنى ذلك ؟

ثم بدأت ألهم ..

تلوات الورقة وخططت عليها كلمات ، وكنا أقول بصوت عال :

- « هل تكلمت هذه المجموعة من الصبيغات خارج اللواة ؟ ..
سأسميها لك كي تظلم ما أراه .. »

وخطت على الورق سؤالي :

- « هل هو سبب تحللهم ؟ »

تناول منى الورقة وكتب كلمة واحدة :

- « نعم .. »

ثم مزي الورقة ..

فهمت .. طبعا لابد من خلل كيميائي حيوي في تلك النسخ التي
عانت للكثير وشاخت قبل الألوان. هذا الخلل هو أنهم غير قادرين
على الاستفادة بالتربتوفان الموجود في الطعام ؛ لهذا يقيمون لهم
التربتوفان بشكل منتظم .. اعتقد أنه حرم بعض النماذج من هذا
الحمض الأميني ؛ فكانت النتيجة هي تحلل الكائن ..

إن الأمر لا يتعلق بموت الخلايا المبرمج ، بل يتعلق بخصر
جوهرى حرمت منه هذه الكائنات ..

يمكننى أن أعرف ذلك ..

السؤال المهم هنا هو : أين تتم عملية الاستصااخ ذقتها ؟

كل ما رأيته حتى اللحظة هو اليابتي بجرى تجاريه ، لكن لابد
من فريق عمل يعمل فى مختبر شديد التعقيد .. فأين هو ؟

أين يمكن أن يضعوا التريتوفان ؟ .. هؤلاء الأطباء ياكلون فى
الكافيتريا مثل الجميع ، فلا يمكن أن يوجد التريتوفان إلا فى
المطبخ ..

كنت بحاجة إلى أن أكون وحدى وألا أرغم على الجلوس فى
هذا المختبر اللعين .. يجب أن أفرد بنفسى وأفكر وأجول كما
أريد ..

هكذا رحمت أفكر فى طريقة مناسبة ..

لهستوريا مناسبة جداً وتقع الجميع .. فليكن ..

أطلقت صرخة مريضة جطت اليابتي بثب متراً فى الهواء ،
وأصعكت بغم معتنى ورحمت أعوى كالوحوش ..

« ماذا دهك ؟ »

« لا أعرف .. كل ألف ممكن تم ... أى !.. افعل شيئاً ! »

وسقطت من فوق مقعدى ورحت أضرب الأرض بأعضائى ..
الحقيقة أتنى انتمجت حتى صارت معتنى تؤلمنى فعلاً .. مشكلة
الهستيريين أو المتعارضين تكون جهنم الطبيى ، وهذا يجعلهم
يرتكبون أخطاء فاحشة .. مثلاً هناك الأخت التى تصر على أنها
فقدت الإحساس فى جانب جسدها الأيمن .. وجانب الرأس الأيمن
كذلك يا أئمة (مها) ؟ .. نعم .. هى لا تعرف طبقاً أن الأعصاب
تتصلب ، وأن الجانب الأيمن من الجسد ينتمى شعورياً إلى
الجانب الأيسر من الرأس ، والعكس .. هكذا يعرف الطبيب على
التور أنها هستيرية ..

لكن الطبيب عندما يقرر أن يتعارض يكون مقتنعاً طبقاً ..

هكذا سمعت أصواتاً عدة ، ثم ظهر رجل آمن ، تلاء كاريرا
شخصياً مبرهنًا على أنه يسمع (نبة التملة) فعلاً .. سألتى وهو
والف قرب جتنى :

.. « ماذا دهك ؟ »

.. « معتنى .. أى ! »

وضربت الأرض متوسلاً لهم فى يريحونى بأى شكل .. قال
لرجل الأمن :

- « استدع (لييمان) حالاً ! »

لقد كفوا عن استخدام أسماء مستعارة ، وصاروا يسمون الأشخاص بأسمائهم .. (لييمان) هو طبيب أمريكي عبقري .. ربما هو أعظم أطباء الأطفال في التاريخ ، لكنه كذلك كان يعالج للكبار جيداً في مستشفى (جبل سيناء) في نيويورك .. وله نظرة ثاقبة مخيفة .. يجب أن أجيد دورى ..

ظهر الرجل من مكان ما ، وكنت أفكر شكله من مراجع الأمراض الباطنية .. إنه قريب الملامح من ممثلنا العبقري (محمود مرسى) .. في الخمسين من عمره ، ضئيل الجسم ، ينس معطفاً عتيق الطراز .. له لحية خفيفة ، غير كثة كالباقين هنا ..

اتحنى على وراح يتفحص بطنى .. طبعا كنت أنظر إليه في رعب شأن المصابين بالتهاب هريتونى ، وقد كففت عن التنفس لأقل من آلام الهريتون .. ووصفت بدقة ذلك الألم الذى يخترق ظهري بين لوحى الكتف ..

راح ينظر فى وجهى بعينين خارقين للرصاص ، ثم قال وهو بعد النبض :

- « ليس تكيفنا في الأورطى .. كذلك من الصعب أن تكون
فرحة مثقوبة دون أن يحدث أى تغير في النبض .. ربما كان هذا
التهاب بنكرياس .. »

قال (كليريرا) فى نفث صبر :

- « أنت مصر على الطريقة العتيقة فى التشخيص .. سوف
نجرى له فحصاً بمنظار المعدة ، مع أشعة تلفزيونية على البطن
كلها ، وربما نسبة إزيم الأميليز .. »

بالفعل نسبت أن (ليمان) لم يكن من هذا الجيل ، وهو
لا يثق فى الاختراعات الحديثة (الرقمية) مثل الموجات فوق
الصوتية .. لكن .. منظار ؟ .. لا أريد .. لن أبتلع هذا الخرطوم
الأسود القويظ ولو دفعوا إلى مال قارون ..

قال (ليمان) وهو ينظر إلى فى شك :

- « لا أرى داعياً لهذا كله .. ربما يكون متعلضاً ، لهذا أرى
فقط أن نبقى تحت الملاحظة .. »

هكذا حملوني إلى غرفة نومى وبصونى فى الفراش دماً ..

صرت وحدى فى الظلام ..

لم أتحرك .. ظننت حيث أنا أنظر إلى السقف وأدعو الله
ألا يقلبنى نوم آمن لو نوم راحة الأعصاب بعد هذا كله ..

لا أكرر كم مر من الوقت وأنا فى هذا الوضع ، حتى افتتح
الباب ببطء وبخس شبح ..

لنا منى فذكرت أنه تلك الأخ (ليمان) .. بالمصطف الأبرص
وعلى راحته فكنسوة صغيرة يدارى بها صلته ، وقد لنا من
فرائضى ومد يد : بمسك بمعصمى ليتحصن نهضى ، وفى الآن
ذاته وضع يده على معننى .. كان يريد للتأكد من أن علامت
المرض قد زانت أثناء نومى ، وهو شأن المستعيرين
والمتمارضين ، بينما من يتكلمون لنا عضويًا فعلاً يحتفلون به
وهم نائمون .. لو نلموا ..

تظاهرت بأننى استيقظت من النوم ، وقت فى إرهاب :

- « ببنى وبينك .. أنت طبيب عبرى فعلاً .. »

- « لماذا ؟ »

- « لأنك خمنت أننى ممرض ! »

وهويت على مؤخرة عنقه بكلوة يدى .. ولم أنتظر لمعرفة
ما إن كنت للضربة كافية لأنى هويت بضربة لخرى فسقط على
الفرش فوقى ..

نزعت عنه القنسوة والمطلف .. إن معطفه غريب الشكل .
فلا يكفى أن أستصل معطفى أنا ..

لمستته فى الفراش .. وبالطبع لم أجد شيئاً أتدبه به ..

سوف ينكر التاريخ أثنى ضربت الطبيب العظيم (ليمان) ..
لكن هذه مزية الطعام .. إهم ضغفاء هشون فعلاً .. لا يشكلون
صعوبة فى التخلص منهم ..

لتأمل أن الظلام الذى يغمر الغرفة جعل رؤية ما يحدث صعبة
على من يراقبنى ..

بسرعة جمعت حليقتى المهمة ولمستها فى جيوبى .. لتفود ..
جواز السفر .. العينة التى سرقها ..

هكذا غفرت الغرفة ..

إن لخدع أحداً طبعاً .. لكن قد لخدع كاميرات المراقبة
المنتشرة فى كل مكان .. سوف يرون من أعلى رجلاً له لحية
خفيفة وقنسوة ، ويلبس معطفاً غريب الشكل .. على الأرجح
مفترضون أثنى (ليمان) ..

هذه آخر حركة عندى ، لأن يطول الأمر قبل أن أجد الرجل
ألمسى وحوله رجال الأمن ، وهو يشير نحوى متهمنا .

- « هذا الخنزير ضربنى ! »

من المستحيل أن أطلب منه أن يكتم ما حدث أو يصمت ..

لقد بدأت رحلتى .. لكن تنكرة العودة ليست معى ..

11- المطابخ والقبور..

كما توقعت ، كانت المطابخ فى نهاية العمر الذى توجد فيه
الكافيريا ..

لم ألق أحداً على الإطلاق ، سوى هذه المريضة أو تلك ،
وكلهن أسبقيات مهنيت بقلن شيئاً ما دون أن ينظرن إلى
بإمعان .. فأهز رأسى محيياً ..

فتحت باب المطبخ و دخلت .. لم يكن هناك أحد على الإطلاق ..
رأيتى هو أن الترتيبات موجودة فى المطبخ ، وأن كمية منه
توضع فى الطعام لكل العاملين فى الوحدة يومياً . لا تستقيم
الحياة مع توزيع جرعة يومية يأخذها كل شخص على مسئوليته ،
بل هو يوضع فى الطعام وضعاً .. لو قمت بتبديل الموجود منه
فإننى أضر طاقم المستشفى تكبيراً ..

إنه مكان فسيح ، لكنى أعرف أن على أن أبحث فى الثلاجات ..
هكذا اتجهت إلى الثلاجات الرأسية العديدة فى ركن المكان ،
وبسرعة رحت أتحص الموجود ..

ثلاجة .. ثلاجة .. ثلاجة ..

آه .. هنا بالذات توجد مجموعة من العلب .. علب تشبه
 علب لبن الأطفال ، لكن لست وثقا من محتوياتها .. لو كانت
 هذه تحوى التريتوفان فسوف اضع بدلاً منه حليب لطفل لو اى
 مسحوق يشبهه ، وسوف يبدأ الأثر سريعاً ..

لكن كيف أعرف ؟

أخرجت عنية ورحلت أتفحصها بدقة ..

هل يراقبنى أحد ؟ . من الصعب أن أعرف .. لكن من
 المدهول الذى يضع كاميرات مراقبة فى المطبخ ؟!

للأسف لا أستطيع معرفة كنه هذه العلب ؛ فالكثابة عليها
 بحروف غريبة لا تمت لللاتينية .. ربما الروسية أو اليونانية ..
 لا .. ليست انجليزية بالتأكيد ..

أغلقت الثلاجة ووقفت أفكر .. ما الذى أجنه من تكدير طاقم
 أطباء هذه المستشفى ؟ .. أمل فى أن أحدث حالة لوتيك .. فمذا
 لو لم تحدث ؟ .. من الخسارة تكدير هذه العينات المتقة .. نعم
 عينات .. فلما عاجز عن النظر إلى هؤلاء القوم كبشر ..

.. هنا وقعت عني على هذا المصعد الصغير بين ثلاثتين. مصعد
 ليس تعس يبدو أنه يستخدم لنقل المأكولات إلى المطبخ ..
 بالطبع يقود إلى القبو ..

لِمَ لا أجرب ؟ .. إن حظي اليوم حسن .. فلماذا لا أجربه أكثر ؟
 هكذا نلت إلى المصعد وضغطت على زر B الذي يقود إلى القبو
 طبقاً ..

انغلق الباب ففرقت في ظلام دامس .. تباً !.. لو تحشر
 المصعد بين طابقتين لصرت في مأزق مخيف .. لا أجد جرس
 الإنذار ، وليس معي جهاز محمول .. أنا تحت رحمة من يقرر
 استئصال هذا المصعد ..

قبل أن أقوتر أكثر سمعت صوت (منج) .. وفتحت الباب ..
 خرجت في حذر فوجدت أنني في قبو تقدر الإضاءة كما توقعت ..
 قبو واسع لكنني أعرفه .. هناك ممر إلى اليمين .. في ركن
 المكان المضاء بضوء رديئة ، هناك مقعدان .. المقعد الأول كنت
 مقبداً إليه ، والمقعد الثاني تجلس عليه المريضة (لوتشيا)
 مذعورة كعهدي بها ..

لم تكن مكعبة ، لكن يبدو أنها استقبلت بضاعتها من الصراخ ،
فأثرت الصمت ..

فقط نظرت إلى في رعب وهممت :

« لكتور ا »

لا توجد حراسة من أي نوع .. هكذا ركضت نحوها .. بحثت
عن سلسلة مفتاحي التي توجد فيها مطواة صغيرة ضمن أبواب
تقليم الأظفار ، ورحلت أعرج قيودها .. لقد انقطعت بسهولة
تامة ..

لهضت وهي تحاول أن تستعيد الدم في عروقها ، وراحت
تركز الأرض مرورا كئنها غاضبة ..

قلت لها وأنا أنظر حولي :

« بصراحة لا أعرف قيمة هذا الإجراء .. نحن سجينان في
المستشفى وسجينان في (غوتيا الاستوائية) ذاتها .. فقط أعدت
الدورة الدموية لأطرافك ، لكن ليس الحرية .. »

قلت وهي تمسك بيدي :

- « لا تنس أنهم وضعوني هنا لأننى أعرف الكثير .. سوف نهرب .. صلتى .. »

نعم .. لميت هذا .. هى من الدخول .. تعرف الكثير ..

بالتفصيل سوف تكون منقذى الوحيد فى هذا البلد ، دعك من أنها تتكلم الأسبانية ، وكل الناس هنا لا يتكلمون إلا الأسبانية ..
نك بعض أننى لو قررت من المستشفى أنى أستطيع أن أشرح ما أريد لأى شخص ..

هذا بالطبع ما لم أتعلم لغة (الفالنج) بسرعة ..

قلت لى وهى تلهث تفعلاً :

- « سيارة الأطعمة تصل مرتين فى اليوم .. سوف يفتح باب القبر ويدخل بعض العمال لينفخوا عربات تحمل المأكولات إلى المصعد .. سيكون هذا هو الوقت المناسب كى نخرج من مخبنا وننتقل إلى داخل السيارة ، وهى تغادر المستشفى بعد نك .. »

- « يا سلام !.. كن يكتشف هؤلاء العمال لك است موجودة ؟ »

.. « لا تنس أنني كنت مقيدة في معر جتبي .. لا يكون
نظرات عليه أبدا .. »

- « ولو خرجنا ؟ .. ما قيمة هذا ؟ »

قلت وهي تضحك في عنوبة :

- « سوف نلجا إلى القنصلية الأسبانية في (بيوكو) .. هي
قريبة جداً من هنا .. »

بدت لي الخطوة مهلهلة تعتمد على الحظ إلى حد كبير ، وهي
طفلة ساذجة لا يمكن أن تثق بها في مهمة أعقد من العناية
ببعض القطط الصغيرة ، لكن ماذا يوسعي أن تفعل ؟

لوي الكثير من التفاصيل ..

(ليمان) يفرق ويملا الدنيا صرخاً .. عندها تتفتح أبواب
الجحيم ، ويخرج المستنطقون بحثاً عنى ، حاملين المشاعل
والكلاب الجائعة .. ائتلكوا المنبوذ !! احرقوه !! فلنطعمه
للصراصير . بينما (كاريرا) يتقدمهم بعباءة سوداء مبطنة
بالأحمر ، وقد استطلت أليابه ومخالبه ، والدم يتساقط من
ركنى فمه ..

لو لم يفكروا فى القبول لولا فهم حمقى ..

كلفت قد تكورت على الأرض بانتظار لحظة الخلاص ، فى ذلك
الوضع الذى يجده لاعبو كرة القدم الذين يستمعون لتعليمات
للمدرب ..

جلست جوارها فى الوضع ذاته ، وسلّتها :

- « ما امت تعرفين هذا كله ، فلماذا لم تهربى ؟ »

- « كنت خائفة .. هذا كل شيء .. »

- « فهمت .. واليوم جربت لسوا شيء ممكن ؛ فلم تعودى

تخافين .. »

وخطر لى أن هذه فلسفة مستترة يجب أن يتفكرها الطغاة
والأوغاد عامة .. يجب أن تبقى لضحاياك شيئاً يخافون أن
يفقدوه .. لا تكن غيباً وتأخذ منهم كل شيء .. عندما يقيسون
سجيناً ويجربونه من ثيابه ويصعقونه بالكهرباء ، فباتهم بهذا
يكسبون خصماً عنيداً شرساً .. لقد صارت حياته كلها تنقسم إلى
ما قبل الكهرباء وما بعدها .. ما قبل الكهرباء كانت حياته كلها
خوفاً من الكهرباء .. بعدها لم يعد يخاف شيئاً ..

(لوتشيا) قلت مقيدة إلى عقد في قبر مظلم فترة طويلة ،
وهكذا انتهت تلك الفتاة المذعورة الخائفة من ظلالها .. لقد صارت
مستعدة للتمادي ..

12- الجزيرة ..

لا أعرف كم مر من الوقت ..

لا بد أن ضربتني لـ (ليمان) كفت قوية جدًا ، لأن لمري لم
يفتضح بعد ..

ثم سمعنا صوت من يتكلم بالأسبانية بصوت عال .. هذه لغة
لا تصلح للهمس كما يبدو .. هناك من يدفع عربات على
الأرضية الخرسانية ..

نظرت إلى (لوتشيا) واتسعت عيناها رعبًا كملتها .. لكن
معنى النظرة هذه المرة هو (حان الوقت) ...
هكذا نهضنا في حذر ..

وخلف الجدار رأيت نور الشمس يدخل القبو .. هناك شاحنة
تقف وقد افتتح صندوقها ناحية الباب .. ورأيت المصعد ينقلني
صاعدًا ..

لا يوجد أحد .. إما الآن وإما لا ..

هكذا جذبتها من يدها وهرعنا خارج القبر إلى الهواء الطلق ..
بالفعل لم يكن هناك أحد في الخارج على الإطلاق .. فقط الشاحنة
التي تهرر محركتها وقد خلا صندوقها تقريباً ..

وثبت إلى الداخل فوق لوح خشب وضعوه لتسهيل الصعود ،
ومدّت يدي لمساعدتها ..

كثرت هناك مجموعة من صناديق المياه الغازية ، فتواريت
وراء واحد وجعلتها تتوارى وراء آخر ..

من جديد تردد الكلام بالأسبانية ، فحبستنا أنفاسنا .. سمعنا من
يتكلم بسرعة كمصفع رشاش ، ثم انغلق صندوق الشاحنة بقوة ..
وصلنا الظلام ..

بدأ المحرك يهرر ، وعرفت أننا نتحرك ..

اعتكك أننا نبتعد ..

اعتقد أننا غادرنا المستشفى فعلاً وصرنا في شوارع المدينة
للغرة ..

بعد نصف ساعة شعرت بأننا نتوقف ..

هناك من يتكلم بالأسبانية في الخارج .. هناك من يفتح باب
الضاحنة ..

أشرت لها أن الوقت قد حان .. هرعنا مندفعين خارج
الصندوق ، وكان هناك رجل أسود واقف يثرثر مع صديق له
وظهره لنا .. يبدو أن هذا المكان مخزن لشركة قتي تورد
المواد الغذائية ..

تنفست بقوة فأسقطت الرجل أرضاً ، ورحنا نركض كالجمارين
في الشوارع القذرة .. بينما عيون الأطفال الجوع ترمقنا في
دهشة ..

لاهثة توقفت (لوتشيا) ، وسألت بعض المارة عن شيء ،
فأشاروا لها إلى اتجاه معين ..

الحق أنها مفيدة جداً .. ما كان بوسعني أن أتحرك أكثر من
مترين من نونها ..

ما كنت هناك حاجة للبحث أكثر ، أو لركوب وسيلة
مواصلات (معظمها ميكروباص هنا) ؛ لأننا بعد ما ركضنا

شارعين وجدنا نفسيما أمام قبلا من طابق واحد ، يرفرف فوقها
 العلم الأسباني ..
 إنها القنصلية ..

★ ★ ★

13- سافارى ..

عنت إلى وطنى للثقى بعد ثلاثة أيام ..

لقد قلمت للتصالية الأسبقية بترحيلنا باعتبارنا لاجئين ،
وهكذا وجدت نفسى فى (أجاو قدورى) أخيراً ، أحمل أغرب
قصة فى حياتى ..

لكنى لم ألق (بارتلييه) كى أقدم تقريرى ..

ولاً توجهت إلى (جيديون) وظليت رايه فى عدة أشياء ،
وأعطيته عنة كى يحللها لى ..

رد علىّ عند المساء ، وهكذا توجهت فى ثقة إلى مكتب
بارتلييه وظليت مقابلته ..

رأى فهل مرحباً .. ونهض من خلف مكتبه كئنه ديناصور
يفيق من سباته ، وهتف :

- « علام .. لم يته الأسبوع بعد .. »

- « فحرت يا سيدى .. لا يمكن للمرء أن يجمع بين الفرار
ونقطة المواعيد .. إن (كاريدرا) شيطان حقيقى ، وقد نجوت
بمعجزة ما من أنبله .. »

جلس جولري على الأريكة لتي راحت تنن ، ثم علا وسألني :

- « هل تبيننت كل شيء ؟ »

- « نعم .. »

- « وهل للمركز الرئيس على حق في لكتهم بصند ما يدور

هناك ؟ »

- « بالتأكيد .. »

نظر إلى في عيني ، واتمعت عيناها الزرقاوان وسط وجهه
الشحيم ، وسألني :

- « ما الذي يدور هناك ؟ »

قلت في هدوء :

- « لا شيء على الإطلاق يا سيدي .. »

نعم .. لا شيء على الإطلاق يا سيدي ..

كنت قد شككت في الأمر في البداية ؛ لأن الرجل ناجح أكثر
من اللازم .. ناجح بشكل مريب .. كل هذا التقدم في عملية
الاستمساخ قام به رجل واحد ، وفي غضون أعوام معدودة ..

لنفس كونه نجح في الاستمساخ فحسب ، بل كونه جعل النماذج
تشيع بهذه السرعة .. تشيع ويرغم هذا يقف عاجزاً أمام موت
الخلايا المبرمج ..

ثم موضوع العنات هذا .. هو حلول لن يقتضى بل أن هذا
ممكن ، لكن من الصعب فعلاً أن تتصور الحصول على نسخ من
(باستير) مثلاً .. ومماذا عن نسخ من (ابن النفيس) ؟ ..
مستحيل ..

كل هذا قد يمكن ابتلاعه بكثير من الصودا ، لكن ماذا عن
قرارى ؟

لقد اعتدت على ألقى تحسن ، وأن الأمور لا تسير معى
بسهولة التى تسير بها مع سواى ..

لكن قرارى كان موفقاً بطريقة لا يمكن وصفها . وضعت
لييمان فى قرائى بسهولة تامة .. مشيت فى المعبرات فلم
يضلوقى أحد .. دخلت المصعد فلم ألق أحداً .. المصعد يتود
بالصدفة إلى القرو حيث الفتاة .. الفتاة لديها حل عبقري للقرارى .
ولم تجر به من قبل ..

ثم عربة المأكولات .. يتم الفراغ عربة كاملة دون أن نقابل أي واحد من طاقمها ولا سائقها .. تتصلل لها بسهولة تامة .. نثب منها فلا يعترض طريقنا أحد ..

كل هذا يشبه الأحلام .. لو أن هؤلاء اجتمعوا لتسهيل مهمتي في الهرب ، لَمَا فعلوا الفضل من هذا ..

لواقع أن هذا صحيح .. هم فعلاً أرادوا لي أن أهرب ..

لكنني ظننت مرتاباً غير قادر على فهم ما يحدث ، حتى أخذت عينة (كوخ) التي مراقبتها وعرضتها على د. (جيديون) الذي فحصها مجهرياً ..

قال لي : إن هذا نسيج من رحم ا.. رحم امرأة أجرت جراحة (كحت) لا أكثر . في هذه الجراحة تخرج أنسجة كثيرة ..

يصعب علي أن أتصور أن كل ما بقي من كوخ عقري للميكروبات الأمثل هو نسيج رحمي ا..

باختصار هذا الأنبوب كان يحوى قطع لحم من أي نسيج فقط يبدو كأن فيه شيئاً مهماً ..

حتى لو لم يكن نسيج رحم ، فقد كان رأى (جديرون) أنه
نسيج طارح تمامًا .. لا يمكن أن يعود عصره لمقالة علم بحلق ،
مهما كانت طرق الحلق ..

نعم يا سيدى .. لا شيء على الإطلاق يدور فى مستشفى
د. (كارييرا) ..

ما يدور - بعبارة أقل - هو عملية نصب كبرى ..

كان ذلك للطاغية (تيودورو أوبياتج مباسوجو) بحلم
بامتصاص نفسه وأن يجثم على صدر شعبه للأبد .. هنا التقى
طريقه مع للنصاب (كارييرا) الذى يزعم فى المحافل العلمية أنه
خبير استمساخ .. نعم .. الاستمساخ قد جذب نصابين كثيرين ،
وأخبار هؤلاء تملأ الصحف كل يوم ..

لقتع (كارييرا) للطاغية بأنه سيد الجنات .. أنه قادر على
عمل استمساخ لو وفروا له الإمكانيات ، وهى هنا إمكانيات دولة
ثرية .. وهكذا تم بناء هذا المستشفى ، وبدأ العمل ، وجاء بحشد
من الأطباء الذين يشبهون أطباء الماضى العظام ، وجعل كلاً منهم
يعيش بالكامل حياة شبيهه .. ربما إلى درجة غسل المسخ ..
لا شك أن كل واحد من هؤلاء يعيش حياة شبيهه بتكامل ، حتى
وهو وحده ..

النتيجة أن الطاغية يدفع الكثير من المال ، وحصل (كاريرا)
في سويسرا بتضخم ..

لكنه يعرف أن لكل شيء نهاية ، ولتصحب أن يستمر للأبد ..

هو بحاجة إلى شاهد لصق .. شاهد يرى كل شيء من الداخل
ويعبر بمغامرة قصيرة .. شاهد يرى هؤلاء الأطباء ويرى الأكسجة
ثم يقبض عليه ويلزم .. يلزم بسهولة تامة كما حدث معي ..

منذ اللحظة الأولى عرف أنه لا علاقة لي بعلم الهندسة
لورائية ، وعرف أن يوسع تقديم أي شيء لي كي ابتلعه ..

عندما أهرب سألماً الدنيا صرخاً .. ملأكي لكل الصحف ووسائل
الإعلام عن تجارب الدكتور (كاريرا) العبرية المخيفة ..

طبعاً سوف يهتم العلم ، وسوف يطالبون بالعلم ؛ لأن استصاح
البشر محرم دولياً ..

لكن هذه الموضوعات سوف تلقى الطاغية (تيودورو لوبيتج
مباسوجو) بأن (كاريرا) سيد الجينات فعلاً .. عبقري فعلاً
ويحقى نتائج .. هذه هي اللحظة المناسبة كي يختلي كاريرا قبل
أن يقبض عليه .. سوف يختلي في مكان ما ، وسوف يظهر
وقد ازداد سعره وصار أكثر أهمية .. إما أن يواصل العمل مع
(لوبيتج) وإما أن يجد مكتوراً آخر يدفع أكثر ..

أى إن دورى كان - ببساطة - ترويح الهراء الذى يزعمه
(كليريرا) عن نفسه ..

لقد رأيت ذلك الذى يؤدى دور (فرويد) يتحلى أمامى ..

عندما الفكر فى الأمر لجد أثنى لم أر شيئا تقريبا سوى رجل
تلوث وجهه بمادة لزجة تبدو من تحتها للعظام .. هذا تأثير
مفرز ، لكن أى خبير مؤثرات يمكنه القول به .. قطاع من
اللاكس الذائب ، تحته زوائد توحى بالعظام ..

الكلام عن التربتوفان وتعليمات زميلى اليباقى .. كلها تفاصيل
لا لزوم لها .. فقط تجعل الأمر يبدو أكثر دقة ، دعك من أن البحث
عن التربتوفان قلنى إلى المطبخ ، وهذا قلنى إلى القبو ..

(لوتشيا) الصغيرة كانت تلعب به أيضا ..

هناك لمسات بسيطة لكنى أشعر بأهميتها الآن .. كنا مقينون
بحبال متينة معتزة ، لكنى عندما فككت قيدها وجدت أنها
مربوطة بحبل مهترئ رخيص الثمن .. معلومتى أنها ظلت فى
قيودها منذ رأيتها .. إن هم جاعوا بها للقبو وقيدوها للمرة
الثانية ، بمجرد أن عرفوا أثنى هربت . لم يكن عندهم الحبل
ذقه ، فاستصلوا أول حبل وجدوه ..

(لوتشيا) الآن في مكان ما من أمريكا الجنوبية ، تنعم
بالمكافأة التي نلتها على التمثيل وخداع تلك الأحمق ..
لكني لست أحمق ..

كما ترى يا سيدي .. هذه مجرد لعبة .. عملية نصب باهظة
التكاليف ..

فما الذي بوسعنا أن نفعله ؟

قال د. (بارتلييه) بسمًا :

- « بوسعنا عمل الكثير .. سوف نكتب لحكومة البلاد وننقل
لهم رأينا ، مع عرض بأن يقبلوا أي خبر ترسله لهم ليثبت أن
هؤلاء الأشخاص مجرد ممثلين وأن سيد الجنات ليس سوى
سيد النصب . لو عرف (لوبيتاج) أنه خدع وأن (كاريرا)
يلعب به ، فلن يرحمه .. سوف يمزقه إرتيا إرتيا في ميدان عام ..
ربما أحرقه حيًا أو للتهمه .. لا يهم .. أرى أن (كاريرا)
يستحق هذا المصير على كل حال .. »

والفقه في مجلس ..

على (كاريرا) سيد الجبلات أن يمر بمساعات عسيرة عكّتي
عشتها على جزيّته ..

لا أعرف ما إن كان العلم سيجرب الاستصاخ البشري يوماً ما ،
وما إن كان سيخلق أي نجاح أم لا .. هذا سوف يجرد الإنسان
من تفردّه وكون كل واحد منا تجربة خاصة لا تتكرر ..
لكننا لا نهتم بأمور كهذه هنا في وحدة سافاري ..

د. علام عبد العظيم

أنجوانديري

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
كي يظل حياً وكى يظل طبيبا

روايات مصرية الخيب



سيد الجينات

من الصعب أن تفسد هذه القصة .. إن الكلام عن
الجينات يروق للجميع سواء كانوا يهودون الرعب
أو الخيال العلمي .. هنا نتحدث عن سيد الجينات
وعن مكان غامض وعن علاء عبد العظيم وعن
بشر يتحللون فجأة وعن زدهات مظلمة .. باختصار
هذه الرواية تبشر بأن تكون ممتعة جداً ما لم تفلت
الخيوط من مؤلفها الذي عودنا على ذلك .. عليه أن
يكون خذراً وأن يتمهل في السرد والأ.....

العدد القادم

فم



المؤسسة

العربية

للطباعة والنشر والتوزيع

التمن في مصر 300

وما يعادله بالدولار الأمريكي

في سائر الدول العربية والعالم

